

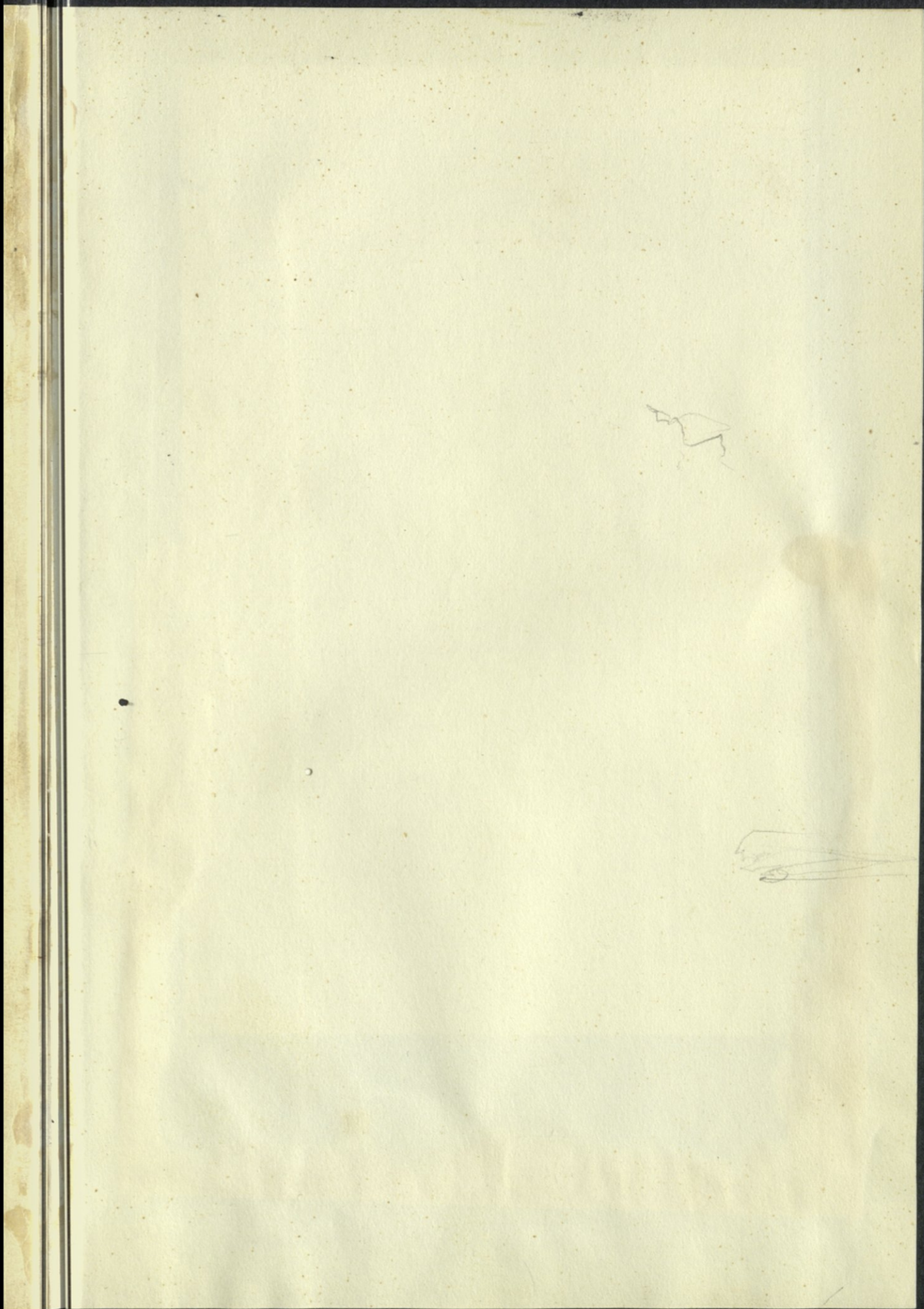


تجليد  
صالح النقر  
بيروت - المزرعة











297  
W14 i A  
c. 1

الإسلام من غير عن مخالفة

تحليل دقيق لأصول الدين الإسلامي

تحت ضوء العلم والفلسفة

تأليف

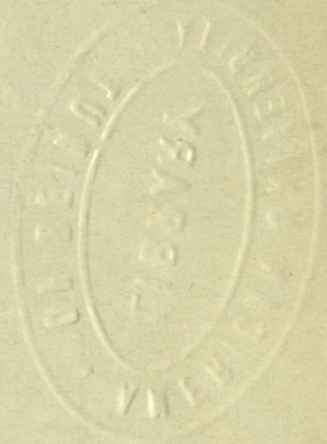
محمد فوزان وحماد

الطبعة الأولى

( طبع في مطبعة دائرة معارف القرن العشرين )

سنة ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م





LIBRARY OF CONGRESS

1898



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خاتم  
انبيائه محمد صاحب البينات ، الداعي لوحدة الانسانية والديانات ،  
وعلى جميع اخوانه المرسلين الذين ارسلوا للعالمين على اختلافهم في  
الاجناس واللغات ، صلاة وسلاما وعلى آلهم وتابعيهم مادامت  
الارض والسموات .

( اما بعد ) فقد كنا ننزع دائما الى وضع رسالة تكشف عن  
كنه الاصلاح العام الذي جاء به الاسلام للعالمين كافة ، فيكون بيد  
كل طالب للحق نبراسا يهتدى به في ظلمات الشكوك التي طمت في  
هذا الزمن الاخير حتي اياست أهل الثقافة من صحة الدين ، وحمלתهم  
على نبذه والمضى في اغراضهم الدنيوية ، منطوية قلوبهم على الريب  
والشبهات . وهذه الحال تنافي الحياة الكاملة ، فان للروح مطالب معنوية ،  
كما للجسم مطالب مادية ، فمن لم يصل للتوفيق بينهما عاش معيشة  
ضنكا ، وحشر يوم القيامة اعمى ، فضلا عن انه يمضى حياته يدفعه  
شك ، وتلقفه شبهة ، على حال لا تتفق والطمانينه ، ولا تستقيم والحكمة ،  
قلنا كنا ننزع الي وضع رسالة تشفي الصدور من تارات الشكوك ،  
وتقيها وخزات الشبهات ، حتي كانت مسألة كتاب (مسائل في الدين)



الذي كشف طالب في الجامعة الامريكية عن أمره، ونشر عنه ما  
نشر، فطالبت الجرائد العارفين برد ماورد فيه من الشبهات على  
الاسلام، فانتدبنا لهذا الامر الجليل، وقمنا بنشر فصول في جريدة  
الجهاد، ومازلنا ننتبع تلك الشبهات حتي اتينا عليها، ثم رأينا أن  
نتبعها ببحث في الاصلاح العام، الذي أتى به الاسلام، على ضوء العلم  
والمناسفة، ففعلنا، حتي آتمنا ما تصديناله، فكان حقا علينا بعد ذلك  
ان نعمم نشره، فطبعناه على شكل كتاب، هو هذا الذي نقدمه  
 للقراء اليوم.

ولا احب ان يفوتني هنا ان اثنى الشناء كله على حضرة الكاتب الكبير  
محمد توفيق دياب صاحب الجهاد، فقد عني بهذه الابحاث عناية خاصة،  
حتي وضعها، على طولها، في قسم المحليات لكيلا تفوت احدا من  
القارئین، وهي عناية تكشف عن حب صادق للحق، وغيره كاملة  
عليه، وتقان صحيح على نشره، فله مني شكر لا احصيه، وله من  
الله الاجر الذي يرضيه.

محمد فريد وجدى





# الاسلام دين عام خالد

مدخل على هذا البحث

نشرنا هنا مقالات رددنا بها على شبهات أثارها على الاسلام، مؤلف كتاب يدعى (مسائل في الدين) . وأمثال هذه الحملات على الاسلام من حين لحين تدل على أن القائمين بنشر بعض الدعوات الدينية يتخيلون أن الاسلام يمكن ملامشاته وصد الناس عنه، وهذا غرور كبير فان ديناً جعله الله خاتماً للاديان، وعاماً لجميع بني الانسان، وباقياً الى آخر الزمان، لا يعقل الا أن يكون من المناعة بحيث لا يستطيع هدمه، ومن استيعاب الحجج ومسايرة مذاهب العقول في الاستدلال، بحيث لا تنال منه شبهة ولا تلين قناته لغامز، مهما توسع في الاساليب . فان كان خارج دائرة المقررات العلمية رجال يبذلون أوقاتهم وأموالهم ليقطعوا الطريق عليه، معتمدين على المغالطات والارجافات، فهم اهون من أن يخشى منهم على هذا الدين . فان الاصول القائمة على الحقائق العلمية الخالدة لا يمكن تقويضها بمثل هذه المعاول الواهية، وقد أشار الكتاب الى ذلك بقوله تعالى في أمثالهم : «ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فينفقونها ثم تكون تبوءون»

وقد رأينا أن ننشر في «الجهاد» مقالات نبين فيها ماهية هذا



الدين ، وكيف انه يقوم على الحقائق الخالدة ، ونشير الى وجوه كونها تصلح لجميع البشر، ونبين كيف أنها لا تقبل الهدم، وانها ستتغلب على جميع المذاهب فلا يكون غير الاسلام دين في الارض . وهو بحث طريف نرجو أن نبلغ منه الحد الذي يبيل الصدى ويشفي الصدور ، ولكن ليسمح لي القراء بتقدمة ثلاث مقدمات لا بد منها لاقامة هذا البحث على قرار مكين، والله المستعان .

ماهو الدين على اطلاقه

نحن إن بحثنا في الدين فانما نبحث عن الاصل المعنوي الذي يقوم عليه من الروح الانساني الصميم ، لاعن الاشكال والمظاهر الخارجية التي لا تقف عند حد ، وتختلف باختلاف الامم ومكاناتها من التطورات الادبية والادبية .

أنظر للانسان ترله وجودين متميزين، أحدهما صوري مادي مرتبط بمادة الكون ارتباطا وثيقا بحيث تسرى عليه جميع نوااميسه وتعمل فيه جميع قواه كما تعمل في أحقر ذرة منه . وثانيهما روحاني مرتبط بشيء أرقى من مادة الكون ، وعالم أرفع من عالم النوااميس والقوى التي لا تشعر بوجودها ، هي روح الكون نفسه ، تلك الروح التي أوجدت الكون وأخذت في تربيته واعداده للحياة وتكميله على سنة التدرج حتى تبلغ به وبكائناته أوج الكمال الذي أعدته له . هنا يخطر للذكر العصري خاطر فيهمس في نفسه : هل للوجود روح حتى يصح أن ترتبط بهاروح الانسان ؟ هذه شبهة مشروعة تستحق الحل والاعتبار ، لانها ترد على كل من يفكر في هذه



المسائل .

نعم أن للوجود روحا كماله مادة ، ألا ترى فيه تحليلا وتركيبا ،  
 وإيجادا واعداما، وتصويرا وإبداعا، وتوفيقا ونظاما، وتدريجا وإحكاما؟  
 وفوق هذه المظاهر كلها ألا ترى فيه ترقيا مطردا ، وتكملا متواصلا؟  
 رأيت زهرة شذية فسألت نفسك كيف تكونت من هذه الأرض  
 الميته، وكيف تألفت ألوانها المعجبة ، وتركب عرفها النقيح، ولطنت  
 حتى لا يحس بها؟ رأيت الماء الذي تشرب منه شبا زلالا؟ مم نشأ  
 وكيف لا ينضب، أنا أحدثك عنه : تبخر حرارة الصيف بعض مياه  
 البحار ورطوبات الأرض فتصعد تلك الابخرة الى الطبقات العليا  
 من الجو ماء خالصا من جميع ما لا يسه من الاقضاء، فتتألف منها سحب  
 لا ترى في فصل القيظ ، ولكن متى جاء الشتاء تكاثمت ورؤيت على  
 حالة غيوم، ورحلت الى حيث الجبال الشم ، وتراكم هنالك بعضها على  
 بعض، فمتى ازداد الجو بردا هطلت ، لا أقول كافواه القرب، ولكن  
 كالسيول الزاعبة ، فما يسقط على الجبال يتحول بالبرودة الى ثلج، وما  
 ينزل الى الأرض يجري على ظهرها رهوا حيث شاء. فاذا انقضى عهد  
 المطر كان على رأس كل جبل جبل مثله من ثلج ، فاذا اشتدت  
 عليه الحرارة ذاب منه جزء ونزل على سفحه فيملا بحيرات هنالك ،  
 فتهيض وتسوق الماء الى النهر المتصل بها، فيجري عبا بامتلاطا فتقول  
 الامم التي تنتفع به ريا وزرعا قد فاض النهر ... ثم يقف عن الفيضان  
 ولكن لا ينقطع ماؤه، لان تلك الثلوج المتركمة على الجبال لا تنفثا تدرب  
 تحت حرارة الشمس يسيرا يسيرا لتمد الاحياء دائما بالاء، وان كانوا لا



يفكرون في ذلك طرفة عين .

وهل حانت منك لفة للطيور في أوكارها، فرأيت كيف يتعاون الذكر والانثى على بنائها، وايتأمرها بكل ما يجعلها صالحة لايواء بيضهما، وكيف يتبادلان احتضانها ويعملان على فقسها، ثم كيف يترافدان على تربية صغارها وتهيئتها للحياة على مثالها؟

وهل راقبت الحشرات في ضعفها وسداجة تركيبها، ورأيت كيف تهتدى الى ما يصلحها ويحفظ أنواعها، وكيف تقوم من ذلك على أساليب ووسائل تعجز أقوى العقول عن تدبيرها؟

وهل شاهدت أنواعا أخرى من الحيوانات فرأيت كيف تقوم على أصول وقوانين ومحاولات تصون بها ذواتها وتحفظ أنواعها؟ كل هذه النظرات التي تجعلك تفاجيء الحياة وهي تعمل، تريك رأى العين انها تستخدم المادة لاغراضها وتهيئها لانتاج الصور التي يعجز الفكر عن استيعابها.

فان كان لا بد من ادراك أى الوجودين أصل للآخر، الوجود المادى المحسوس أم الروحانى المحجوب، هجم بك النظر المجرد على أن الحياة هي أصل المادة، لا أن المادة أصل للحياة . وهذا هو الرأى الذى انتهى اليه علماء البيولوجيا قال العلامة الكبير ( توماس هيكسلى ) أحد اعضاء المجمع العلمى الانجليزى فى كتابه ( المدخل على علم ترتيب الحيوانات ) .

« فى كل المملكة الحيوانية لا يوجد مجموع فوق هذا المجموع فى تأييد هذا المذهب القوي الذى أوما إليه ( جون هنتر ) أكثر من



مرة وهو «أن الحياة هي علة الاجسام لا انها نتيجة لها» ، لأنه في هذه الصور الدنيئة للحياة الحيوانية ( يريد جماعة الاميب من الحيوانات الساذجة) لا يصادف الباحث مهماتوسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم أى أثر للتركيب الجثمانى فيها . فان هذه الاحياء لاشكل لها ومجردة من الاعضاء ومن الاجزاء المحدودة ، ومع ذلك فهي تملك الخصائص والمميزات الاصلية للحياة، حتى انها تستطيع أن تبتنى لنفسها قواقع ذات ترا كيب معقدة أحياناً وعلى غاية ما يمكن من الجمال» انتهى

هل هذا الترتيب المحكم ، والتكوين المنظم، والاسباب الموجودة للكائنات، والعلل الحافظة لها، والعوامل الدافعة لترقيتها، والنواميس العاملة لتكميهاها ، هل كل هذه المجموعة الضخمة من الاسباب والعلل والنواميس والعوامل، فى كون يغلى بالاحياء ، وينمى بالكائنات ، قائمة على مجرد الخبط والاتماق ، ومحرومة من روح يدبرها ويهيمن على أطوارها ؟

تستقيم بعض العقول الى كلمة (الطبيعة) فيجدون فيها سكوناً لا ارواحهم بل خدراً لعقولهم ، ولو تأملوا لعلموا أن الطبيعة كلمة تطلق على المجموعة التى نعنيها من الاسباب والعلل والنواميس والعوامل ، فان راق لبعضهم أن يحتفظ بهذا اللفظ قاناهل الطبيعة تستطيع أن تعمل بغير روح ، وأن تفعل مجردة عن الحياة؟ لا، فلا بد من أن يكون للوجود حياة عامة وراء ظواهره المختلفة ، كما للجسم الانسانى حياة خلف ظواهره المباشرة ، فان تلج صدر قارئنا على تنوير هاتين الحياتين ، ساع لنا أن



نقول أنهما مترابطتان لأن أحدهما مشتقة من الاخرى ، فالحياة الانسانية قبسة من الحياة الوجودية ، كما أن الجسد قطعة من مادته الارضية ، فالشعور بهذا الترابط بين الروحين ، والحنين الى زيادة توثيق عراهما ، وتعريض صغرها للاستمداد من كبراهما ، هو أصل الدين وينبوعه في النفس البشرية .

فالدين بهذا الاعتبار شعور بالارتباط الطبيعي بين الانسان وروح الكون .

وإذا كان الدين هو هذه العلاقة الطبيعية بين الانسان وروح الكون ، في مستوى الشعور بالعلاقة الموجودة بين مادته ومادة الكون ، فلا يستطيع مهما بذل من الجهود أن يتخلص من الشعور بهذه العلاقة ، ولا أن يعفى نفسه من العمل لها . فاذا قلنا أن الانسان لا يمكنه أن يعيش بلا دين فلانكون مغالين ، بل نكون مماشين لطبيعة الاشياء . فاذا كان قد أصاب الدين فتور في بعض الاحيان فذلك في مظاهره الخارجية لا في جوهره وحقيقته ، ولا في شعور النفس بالحاجة اليه .

وقد قال بهذا القول غطاريف الفيلسفة العصرية التي نشأت في ربوع المدنية المادية ، فهذا الفيلسوف الكبير ( اجوست سباتيه ) يقول في كتابه فلسفة الدين :

«لماذا أنا متدين ؟ انى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة الا وأرانى مسوقا للإجابة عليه بهذا الجواب وهو : أنا متدين لانى لا أستطيع غير ذلك ، فالتدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون ذلك



اثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج . فاقول لهم قد اعترضت على نفسي كثيرا بهذا الاعتراض نفسه ، ولكني وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها ، وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية ، فهي ليست أقل تشبها مني باهداب الدين ، الى أن قال : « واذن فالدين باق وغير قابل للزوال ، وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادي الزمن نرى ذلك ينبوع يتزايد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجاريب الحيوية المؤلمة » . انتهى

وقال الفيلسوف الكبير (ارنست رينان) في كتابه (تاريخ الاديان) « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نجبه ، وكل شيء نعهده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبا الأبدن حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الانساني في المضائق الدنيا للحيات الارضية » . انتهى

### ببحث في الوحي

اشد ما ترتطم به عقول المعاصرين من الشبهات العامة ، مسألة الوحي ، فيستبعدون ان الله قد أوحى الى رجال منهم ليحملوا الى الناس من التعاليم ما يقيمهم على الصراط السوي في حياتهم الدنيا ، وما يفيدهم من العبادات في حياتهم الاخرى . فلا بد لنا من وقف المقدمة الثانية من بحثنا هذا على هذه المسألة الخطيرة .



ان روح الوجود الذي صور الكائنات كلها على أي أساليب  
 الابداع شاء، سواء أخلق كلا منها خلقا مستقلا ام اشتق بعضها من  
 بعض على قاعدة التحول التدريجي ، لم يقطع امداده لها طرفة عين .  
 وكيف يعقل غير ذلك وهي مستمدة وجودها منه، وسابحة فيه سبح  
 النينان في المحيط الزاخر، منه وجدت وبه تحيا وفيه تنفى ؟  
 ومما يجب لفت النظر اليه أن تدير روح الوجود للكائنات  
 وشدة اتصاله بها، أظهر ما تكون في الكائنات الدنيا من الاحياء ،  
 ثم يأخذ اتصاله بها في الخفاء حتى يصل الامر الى الانسان ، فيخيل  
 اليه أنه مستقل عنه ولا يعتقد باتصاله به الا باعمال الفكرة وانعام  
 الروية .

خذ في يدك بذرة تفاحة وتأملها، تجدها تكاد لا تفرق عن الحصة  
 الميئة . فان قيل لك، ولم تكن رأيت ذلك من قبل ، ان هذه البذرة  
 توضع في الارض فتنبت، وياخذ هذا النبات في النمو حتى يصير  
 شجرة، ثم تزهرفتنفرج زهوره عن ثمر التفاح اليانع في مذاقه الشهى  
 واريجه الشذى ، ولونه الوردى ، وملمسه الحريري ، لكذبت  
 محدثك واتهمته بالازراء بك، والسخرية من عقلك ، ذلك لانك لا  
 تفعل أن هذه البذرة العاقلة عن وجودها تنفرج متى غرست في  
 الارض وسقيت بالماء عن جذير وسويق، الاول يغوص في الطين  
 يتطلب مواده الذائبة وأملاحه المقومة ، ولا يرتفع الى سطحه  
 والثاني يرتفع الى سطحه متطلبا الهواء والنور، ومهما حاولت أن تغير  
 وضع هذين العضوين فلا تستطيع ذلك مهما جهدت فيه. أليس هذا



الامر وحده الذي ليس له علة معقولة يدلك على فعل الروح العام فيه، والى دفعه لكل من هذين العضوين الى موضعيهما اللذين لا بد من وجودهما فيهما الاداء وظيفتيهما في الانبات ؟

أليس هذا الامر وحده يدل على هداية الحياة العامة لهذا النبات الضعيف وعلى دفعها لكل عضو فيه الى موضعه ؟

نم اذا تأملت كيف يهتدى ذلك الجذير وهو مغروس في عيلم من المواد المختلفة التي لا تحصى كثرة، لانتخاب العناصر التي تتألف منها شجرة التناح، وتنتج زدرتها وتثمر ثمرتها، وتؤايتها بعرفها المعروف ومذاقها المعهود، لو تأملت في هذا وفي جميع شؤون المملكة النباتية، فاجأت الروح العام وهو يهتدى هذه الكائنات الضعيفة الى ما يصلحها ويفعل في تكوينها فعلا مباشرا لا يذبي عنه الا من ليس له بصر.

ثم دع المملكة النباتية وارتقى الى المملكة الحيوانية، وانظر الى تلك الكائنات الساذجة المكونة من خلية واحدة وهي ابسط ما يمكن تصويره منها، تجدها ممتعة بالعلم الذي يحفظ وجودها ويصون نوعها، وبالمحاولات التي لاغنى لها عنها في الدفاع عن أنفسها وفي الاحتيال للخلاص من ورطاتها .

فمن أين أتى لهذه الكائنات هذا العلم وهي محرومة من الأعصاب ومن المخ معا ؟ أليس هذا العلم لديهم انشا من روح الوجود نفسه ؟

من الذي أدري البعوضة انها يجب أن تبيض على سطح الماء الرأكد، وانها مضطرة لوضع بويضاتها في قوارب صغيرة تعوم على سطحه، ومن



الذي وضع في جثمانها أجربة تحتوي على مادة تجف بمجرد ملامسة الهواء  
تصلح لعمل تلك القوارب ، ومن أشعرها بأن تلك المادة تنفرز بالضغط  
عابها ، ومن لقمها صناعة تلك القوارب واضطرها لوضع بويضاتها فيها ،  
وهي لا تعيش حتى ترى ذريتها خارجة منها ، ولم تر هي أماتها تفعل  
ذلك قبلها ؟ وقس على البعوض جميع أنواع الحشرات والهوام مما  
لا تحصى أنواعها كثرة ، وكما تلهم الهام ، وتبش على أعجب ما يتخيله  
التخيلون من التصرفات المدهشة .

هذه ليست أمورا غريبة فحسب ، ولكنهم محيرة للعقل أيضا ومجبرة  
له على الاعتقاد بأن عالم الحيوانات على اختلاف أنواعه ، وتباين  
وسائل حياته ، وتعدد محاولاته ، يحيا تحت عناية الروح العامة تمده  
باللهامات الضرورية لحفظ ذاته ونوعه ، بحيث لو تركته ، طرفه عين لهلك  
أترى أن هذه الحيوانات كانت تستطيع أن تبقى في معمعان  
هذه الهيجاء الحامية ، التي تشنها الطبيعة عابها بعواملها المختلفة ، لولا  
هداية الروح العامة لها وعمليها المباشر على صياتها من معاطبها ، وارشادها  
الي وجوه نجاتها ؟

لقد وصلنا الي الانسان ، فهل يتلقى مدداً من الروح العام على نحو  
ما يتلقاه النبات والحيوان ؟ أما المدد الجثاني فلا يمكن التشكك  
فيه ، فانك تبصر ولا تدري ما يحدث في بلورية عينيك من التحذب  
والانبساط على حسب ابعاد المرئيات ، ولا بمدقتيهما من الضيق  
والاتساع على قدر كثرة النور وقلته ، وتأكل وتهضم وانت غافل  
عما يحدث في أحشائك من التحليل والتركيب ، والتصفية والتصفيد



حتى ليخرج من الخبز والخضر والفواكهة التي نتعاطها عضل ودم  
وعظم وشعر وأوتار وغضاريف وأعصاب، فن الذي يدبر كل هذه  
الاجهزة الدقيقة وأكثر أهل الارض لا يعلمون من أمرها شيئاً،  
ومن الذي يهديها الي وظائفها ويقودها الي مايقومها ويصلحها؟  
هذا حال الجثمان فهل يتلقى الروح الانساني مدداً عقلياً من الروح العام؟  
لقد أريتك كيف أن الحيوانات تاهم ما تعمله الهاما، وتقتصر  
عن أن تنتجها بعقولها انتاجاً، فشريعتها مبنوثة في جميع آحادها على  
السواء، فليس فيها علماء وجهلاء وأوساط، ولكن كل فرد منها ياهم  
ما يصاحبه الهاماً، فيكرر العمل الذي كان يعمله نوعه منذ وجد على  
الارض، فاما وجد الانسان وكان قريباً من الحيوان في سذاجته  
وتجرده من الاوليات الضرورية لوجوده، تولاه الوحي لامن طريق  
الاهام والسوق، ولكن من الطريق التعاليمي، مادام قد استأهل  
هذه المرتبة، فيولد الانسان مجرداً من كل علم وكل حياة، فيهديه  
أبواه وقبيله الي وجوه العمل، فأصبح للوحي سبيل خاص بالانسان  
مناسب لكرامته، وهو أن يفضي الروح العام بما يجب أن يعلمه  
الكافة ويعملوا به الي واحد منهم، فيقوم بنشره بين محاشريه من نوعه.  
هذا هو الذي حدث فعلاً، فان الانسان قد اعترف منذ أتم  
أيامه، بما تركه من الآثار، ومما تشبه على الاحجار، بأن آحاداً منه كانوا  
يتلقون الوحي في أحوال خاصة من حياتهم، فينشرونه في قبيلهم  
تحت اسم ملة أو دينة، فيتأقاه الناس بالقبول أو يرفضونه، انذاراً للوحي  
أقدم منه.



فاذا كان هذا الاعتراف من الامم منذ القدم لا يكفي في اقناع الآخذين بالفلسفة الحسية ، بحجة أن أولئك الاقوام الاقدمين في جهالتهم وعميتهم لا يصح أن يوثق بأقوالهم فيما يسمونه وحيًا، ولكن قد يكون ذلك مذهبا لرجل رشيد منهم لقنهم اياه تحت هذا العنوان ليعملوا به مجبرين لا مخيرين .

قانا قد يكون ذلك، ولكن الواقع أن الانسان وهو يجتاز دور الحيوانية ( عفوًا فاني أخطب أهل الفلسفة الحسية )، لا يعقل أن يكون قد قطع فجأة عن حالة الالهام الحيواني الذي تولي أمر أسلافه طوال عهدهم بالوجود، ولكن الذي يعقل ويساير الطبيعة أن يكون قد انتقل من ذلك الدور تدريجيًا، حتى لا تعمى عليه وجوه الحياة فيبيد ، ولم يمهّد في حوادث الوجود الخبط والجزاف كما هو معلوم، وعند تمام تميزه عن العالم الحيواني كانت روحه بحكم هذا التدرج نفسه قد تطورت تطوراً ذريعاً، فأصبحت قابلة للاتصال بالروح العام من طريق روحاني محض .

يقول قائل : مامعنى اتصالها بالروح العام من طريق روحاني ؟  
أليس هذا من قبيل تشبيه الماء بعد الجهد بالماء؟

نعم هو كذلك لدى من اكتفى من العلم بما تلقاه في الكتب المدرسية المحدودة ، ولكن العالم منذ سنة (١٧٧٠) أي من عهد أن أعان الدكتور الالمانى (مسمر) بأنه اكتشف سيالاً حيويًا في الانسان اسمها المغناطيس الحيوانى ، وهو جاهد في تحقيق وجود هذا السيل ومعرفة خصائصه بواسطة التنويم الصناعي، وقد ثبت أخيراً وصار



في عداد المعارف الاولية لدى الباحثين بأن في باطن كل منا عقلا مستقلا غير عقلنا العادى أرفع وأوسع مجالا منه ، هو الذى يوحى الي الانسان الميول الطيبة ، وينهاه عن المنكر والبغى . وهذا العقل الباطن هو الذى يدبر جثمانه، ويدير أجهزته وأعضائه ، ويصلحها ان اعترأها عطب .

هذا العقل الباطن الذى لا يحس الانسان بوجوده ، متصل بالحياة الروحانية العامة اتصالا مباشراً ، فهو يتلقى عنها ما يناسب درجته من المعارف ، ويحاول أن يعكسه على صاحبه من طريق الالهام . فهل يعقل أن لا يكون هذا العقل الباطن قد وصل في بعض الناس الى درجة رفيعة بحيث يستخدمه الروح العام لا يصل شريعة جديدة الي شعب هو في حاجة اليها ؟

كيف يعقل خلاف هذا وهو الذى حدث فعلا في كل أمة ، وفي جميع أديان التاريخ ، فلم تخل الارض قط من داع الي الحق والى الفضائل ، مدعياً انه أرسل لاداء هذه المهمة ارسالاً ، فتراه يعرض نفسه للهلاكه في سبيل تعميم دعوته ، ويصبر على البأساء والضراء متبعاً سمى الصالحين من الزهد فى الدنيا والتواضع وإيثار الفقير حتى ينجح فيما تصدى له أو يقتل فى سبيله .

إذا وجد من القارئ من ينكر العقل الباطن ويتشكك فى اتصاله بالعالم الروحانى مباشرة ، ومن لا يقول بأن للانسان حياتين حياة عادية هى ما هو عليه فى حالته المعهودة ، وحياة روحانية يجليها التنويم المغناطيسى بما لا بدع للانسان شبهة ، ولا يعترف بأن الانسان فى حياته



الروحانية يعيش في عالم علوي يذخر بالحقائق الالهية ، والمعارف السماوية ،  
 فينال منها على قدر استعداده ، ويؤديه لعقله العادي ، محو لا اعداده للترقي  
 والتكامل ، قلنا اذا كان في القارئ من ينكر هذا كله فليس لنا من وسيلة  
 لاقتناعه الا بلفته للتوسع في قراءة ما كتبه العلماء الباحثون في مسألة  
 التنويم المغناطيسي ، والعقل الباطن على الاسلوب العلمي الصارم .  
 فاذا كان من الناس من يتجرأون على التكذيب بهذه الحقائق ،  
 مع اعفاء أنفسهم من الاطلاع على ما كتب فيها ، فهؤلاء أمة ووحيد ،  
 وليس يضير الحقائق أن يجافها عدد محصور من الجامدين .

ماذا يتطلبه الناس من الدين ؟

الناس من ناحية الثقافة العقلية ينقسمون الي ثلاثة أقسام :  
 علماء منتهون ، وأوساط متعلمون ، وعامة مقلدون ، وبين هذه التقاسيم  
 العامة درجات تكاد لا تحصى ترجع كلها الي عقلية رئيسية مع خلاف  
 لا يعتد به في مثل هذه البحوث . وكل طبقة من هذه الطبقات  
 الثلاث تتطلب من الدين ما يناسبها من الغذاء الروحاني ، فما يكفي  
 الطبقة الدنيا لا يكفي ما فوقها ، وما يقنع هذه لا يقنع الطبقة العليا  
 من المنتهين ، ولا مناص لنا ونحن نبحت في الدين العام الخالد ، أن  
 نلم بكل ما تتطلبه هذه الطبقات الثلاث لنرى هل هنالك من دين  
 يوفي بحاجتها كلها ، فيكون هو الدين العام الخالد ، أم لا ، نتاجاً  
 الانسانية الي شيء جديد ؟

لا يتطلب العلماء المنتهرون أن يأخذوا عن الدين آداباً وأخلاقاً ،  
 ولا أن يتعاملوا منه أسلوباً في الحياة ولا دستوراً في المعاملات يتفق



وأصول العدل والاخاء والمساواة ، فانهم وضعة المذاهب ، وبناة الاساليب ، وصاغة الاصول ، وانما هم يتطلبون من الدين أن يصلهم بروح الوجود ايصالاً مباشراً يستمدون منه حياة لارواحهم ، ونوراً لعقولهم ، وسكناً لنفوسهم ، ومظماً لوجدانهم .

يشغل هؤلاء العلماء المنتهين شاغل ضخم أذهابهم عن كل ماسواه ، وهو هذا الوجود العظيم ، وما يعمل فيه من القوى ، وما يتخلله من المساتير ، وما يترأى فيه من الآيات ، وما يحيط به من العلل الاولية ، والعوامل الخفية ، وما وراء ذلك كله من الروح المدبر والاصل الاصيل . ان هؤلاء العلماء قد قتلوا المذاهب خيراً ، فازدادوا في بحوثهم حيرة ، فكلمار تمنع امامهم حجاب انترج عن مجهول أهول مما سبقه ، وكلماً فتحت امامهم باحة تراءت لهم منها غاية قصية لامناص لهم من الوصول اليها ، قبل أن يطمعوا فيما بعدها ، وهم مع هذا تحيط بهم مسائل لا يتخيّلون لها حلاً ، وتقوم في وجوههم حوائل لا يستطيعون لها نقباً ، وتساورهم معاضل لا تترك لهم بسواها شغلاً . فاذا ألقوا نظرة الي أنفسهم والى الوسائل التي يتوسلون بها لكشف هذه السدوف عن عقولهم ، تكشففت لهم عن ضعف يدفع الي القنوط من الوصول ، وقصور لا يدع لهم مطمعاً في أقل محصول !

فاذا أعلن أمثال هؤلاء بانهم في حاجة الي التدين ، فانهم يعنون من ذلك أن يلقوا بانفسهم بين يدي قيوم السموات والارض يتنسمون من ناحيته نفحة تكون ، وهم في وطيس هذا البحث ، سكنالارواحهم ، وملاذ الشعورهم ، حتى لا تحترق رؤوسهم لوعة ، وتتمزق صدورهم حيرة .



فالتدين لدى هؤلاء صعود بالروح الي قيومها، واتصال به في عالمها، واستمداد منه في تلهفها . فان ازدادوا في لياذهم بها حيرة كانت حيرة المحب الواله يتحرى سبل الوصال، لاحيرة الوامق اليأس استدت في وجهه أبواب الآمال .

هؤلاء المفكرون الكبار لا يثنهم عن دين أن يكون فيه ما يحتاج لتأويل ، أو يستعصى على التعليل ، فهم يعززون كل ذلك الي عوامل توجبها البيئة القاهرة، وتستدعيها عقلية الشعوب المتأخرة، ولا تتجرد من مثلها المثل العليا حتي في الطبيعة نفسها، على انها الاصل الاصيل للكائنات المادية ، لا يثنهم عن دين كل هذا اذا كانت روحه تصح أن تؤثر في ارواحهم ، وأسلوبه يتآخى وأسلوبهم، وكانت سبيله تخلو من العوائير، وغايته أبعد من أن تنال بالتخيل والتفكير، فهم قد ألفوا الجاهيل حتي كرهوا أن يتخيلوا لها حلا، وأنسوا ببعد الغايات حتي أثنوا أن يتوهموا لها حداً، لانهم يرون أن هذه العظمة المحيطة بهم لا يصح أن تنكشف مساتيرها لعقل أرضي مهما بلغ من القوة، ولا أن يحيط بحقيقتها نظر مادي مهما نفذ في سرائر الامور .

ولا بد لي من التنبيه هنا الي أن هؤلاء العلماء الاعلام يرون أن لاجابة بهم الي الاديان المعروفة، فهم يعتمدون في تدينهم على ما غرس في الفطرة الانسانية من الدين الحق . وقد حمل بعضهم اليأس من الاديان الموجودة على وضع دين دعوه الدين الطبيعي، فصلنا أصوله في كتابنا المدنية والاسلام

أما الاوساط من طائفة المتعلمين ومن في مستواهم من المفكرين



فيتطلبون من الدين أن يكون واضح المحجة، ناهض الحججة، يماشى العقل في غاياته ومراميه، ويساير الطبيعة في أوامره ونواهيه، لا يضع للرقى حداً، ولا يسد على العقول مجالاً، ولا يحرم ما تشعر النفس بضرورته من المباحات، ولا يضيق ما اتسع من المحاولات، وأن يكون مرناً يسع ما يجد من الآراء العامية، ولا يستعصى على ما ثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية، وما يقوم الدليل عليه من الشؤون الكونية.

فهم يرجون من الدين أن يقتصر على ارشادهم الى طريق الاخلاق والآداب والنضائل والكمالات دون أن يحاول تحديدها، تاركاً للعقول حرية التطور في الشعور بها، وبلوغ الغاية التي تنتظر منها .

فإذا كان لابد للدين من شريعة، تطلبوها شريعة عامة تنص على الحقوق الطبيعية، وعلى وجوب تحرى العدالة، وعلى اقامة الاحكام على ارسخ الاصول وأحكم القواعد، دون أن تضع - نزعاً - التشريعية في الانسان حدوداً لا يمكن تعديها، وللحوادث والوقائع أحكاماً لا يصح أن يعدل عنها الي غيرها، مما يثبت انه أدنى الى العدل مما وضعه القدماء لها .

فهم يريدون أن تكون شريعة الدين أصولاً أولية ومبادئ رئيسية، تصح أن تكون دستوراً للمشرعين، لأن تكون شريعته تفصيلية ان انطبقت في عهد من العهود على الحوادث شذت عنها في عهد آخر ، وباينتها في أكثر اجراءاتها، وفي الذرائع التي يتذرع بها للوصول الي تجلية الحقائق .

فهذه الطبقة بما تسرب الي كثير من آحادها من الشبهات الفاسفية



وبما تشبعوا به بحكم تربيته المدرسية أو المخالطات الاجتماعية من الاصول  
العامة، وبما أثر في نفوسهم مما كتبه المجلات الاحادية من الاستهانة  
بالدين، تنشأ بهم حاجة قوية الى الدليل المحسوس، والى الحججة القوية،  
فيتطلبون أن يجدوها في الدين نفسه، لافى القائلين عليه من حفظته،  
فهم على ضعفهم أشد على الدين من العلماء المنتهين، فلا يغفرون منه  
ما يغفرونه أولئك، ولا يتسامحون فيما يتسامح به كبار العقول، لذلك يكثر  
المأخذون في هذه الطبقة، ويجمدون بعضهم في الاحاد الى حد الاستعصاء،  
وبالنظر لعدم شعورهم بهول ذلك المجهول الضخم، الذي يشغل العقول  
القوية ويصرفها عن كل أمر غيره، تراهم يذهبون في الاحاد الى حد  
الاستخفاف والسخرية من المعتقدين بشيء فوق الطبيعة المادية. فان  
عرض ذكر كبار العقول، وعرض عليهم ما قالوه في الدين المطلق، هزئوا  
بهم وقالوا إن العلماء المنتهين لطهارة نفوسهم، وسلامة صدورهم، يقبلون  
الانخداع ولا يوثق بعقولهم في غير بحوثهم التي مرنا عليها من  
عمرهم سنين.

هذه الطائفة ان شعرت بالحاجة الى دين صحيح، تخيلته لبناسائغا  
خاليا من كل ما يحتاج لتأويل، أو يستعصى على الدليل، الدليل الذي  
يرتضونه هم لا ما يرتضيه أساتذهم العارفون.

ولما كانت هذه الطائفة هي سواد المتعلمين والقابضين على أزمة  
الاعمال، كان موقف الدين حيالهم وبخاصة في هذا العهد، عهد الشكوك  
والمجادلات من أخشن المواقف. وكثيرا ماهاجمه أفراد من فطاحل  
كتابهم على طريقة الدس، فقوضوا دعائمهم في نفوس كثير من طلاب



العلم، فأخرجوهم الى باحات الاباحة الحيوانية ، لان آحاد هذه الطبقة لا يصادفون في أنفسهم الشكائم التي تردعهم عن الغي ، فيخوضون في حماة الرذائل ويكونون مثالا لغيرهم في التحال من جميع التبعات الادبية .  
 أما الطبقة الثالثة — وهم العامة فهم مقلدون في دينهم وديانهم ، وانما ينصرت تحديهم في أهل الطبقة الثانية فيتناقون عنهم في صمت جميع ما يفعلون وما يقولون ، ثم يصبون في قوالب عاميتهم ، فيصبح ان كان ماتلقفوه شراً ، رجس اعلى رجس . فهؤلاء في الواقع مجنى عايرهم يستحقون الرحمة من الوعاظ والمرشدين .

هذه حال الطبقات الثلاث المكونة للجماعات البشرية في هذا العصر حيال الديانات ، وما يتطلبونه من دين ، فلم يبق علينا إلا النظر في هل الاسلام يوفى بجميع هذه الحاجات العقلية والنفسية فيكون هو الدين العام الخالد ؟

### شان الاسلام مع العلماء المنتهين

فصاننا في مقالنا السابق ما يتطلبه العلماء المنتهون من دين وتساءلنا هل يوفى الاسلام بمطالبهم هذه فيكون هو الدين العام الخالد ؟ واليوم نقول نعم واليك البيان :

قلنا أن العلماء المنتهين لا يهمهم من دين إلا أن يصعد بارواحهم الى قيومها ، لتتصل به في عالمها ، وتستمد منه القوى في عروجها ، أما ما عدا هذا من الآراب فلا يعينهم أمره ، لاستغراق عقولهم في ذلك المجهول الضخم الذي يحيط بهم . والاسلام من هذه الناحية أصاح ما يكون سكناً لارواحهم ومتنسماً لعقولهم وموجهاً لميولهم ،



فهو ان شاءوا هجم بهم على معقل اليقين فنقاهم من عالم الروح الى درجات لم يلمحوا بها، وان شاءوا جال بهم من عالم الشهادة في منح زيدهم اكاراً لهذا المجهول الضخم، وتضاعف من همهم لكشف الحجاب عنه والوصول الى سر لبابه.

أول ما يفتخرون به من هذا الدين قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي نطر الناس عايتها لا تبدل خلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعامون » . فاذا قرأوا هذا غشيتهم من احترامه ما غشيتهم، وخالط هذا الاحترام قدر كبير من التعجب والدهش . فان ديناً مضى عليه نحو أربع مائة وألف سنة ينص كتابه على أن الدين فطرة في النفس، وأن هذه الفطرة نفسها هي الدين الحق، هو أمر يقضى بأشد درجات الحيرة، ويدعو الى تفكير كبير في حقيقة مصدره . فان مثل هذا القول البعيد الغور لم يتأت لكبار الفلاسفة الاقدمين، ولا يمكن أن يدرك خطورته البشر إلا في هذه القرون الاخيرة، ومؤداه أن النفس منطوية على الدين، وأن الاسلام هو نفس تلك الفطرة . فالاسلام ليس بتقاليد ومورثات وآراء وشروح، ولكنه تلك الفطرة مجردة من كل شوب، وهي تؤدي الانسان بقواها الذاتية الى أقوم الطرق وأعدل المذاهب، وتكون هذه الطرق والمذاهب عرضة للتطور على نسبة ما يدخل فيه عقله من التطورات المتعاقبة . فلا يعقل والحالة على ما ترى أن يوجد مذهب أرسخ من هذا المذهب أساساً، ولا أشد على النقد مراساً، ولا أبعد نى العقول غورا . وقد تسمى باخص صفاته وهو ( الاسلام )، ومعناه الاستسلام الى الله متجرداً من كل



ما أنتجه الفكر، وما أثمره النظر، وما ورثته النفس، وما صورتها الخيالة .  
 ودليلنا على هذا الفهم من الكتاب حال ابراهيم في أول أمره ، وقد  
 نشأ في قوم يعبدون الكواكب ، كما روى عنه الكتاب الكريم  
 في قوله تعالى : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما  
 أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما  
 أفل قال لئن لم يهتدي ربي لا كونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس  
 بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما  
 تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا  
 وما أنا من المشركين »

هذا دين ابراهيم الذى قال فيه الكتاب : « ومن يرغب عن  
 ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى  
 الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين .  
 ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا  
 تموتن إلا وأتم مسلمون »

والدليل من السنة على أن الاسلام هو الفطرة مجردة من كل شائبة  
 قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وانما أبواه  
 يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ، أى أن كل مولود يولد مفطورا على  
 الدين الخالص الذى هو الدين الحق وحده ، وانما أبواه يلقنانه من  
 التعاليم ما هم عليه منها ، رد وينافى الاسلام جملة وتفصيلا ، لانه لا يعتمد  
 بدين غير تلك الفطرة تتيمة ساذجة حرة مستعدة لقبول كل حسن ،  
 ودفع كل قبيح ، وللمتذهب بكل ما يقوم على صحته الدليل ، والاستعاضة



عنه بغيره متى لاح لها انه أقوم منه سبيلا .

فهذه الفطرة، فطرة المولود قبل أن يلحق ديناً من الأديان، وتعاليم من التعاليم، هو الاسلام الذي جاء القرآن بالدعوة اليه، فهل صادفت فيما بين يديك من المذاهب الفاسفية مذهباً في الدين أرقى من هذا المذهب، وأساساً له أبعد غوراً من هذا الأساس ؟

فلاسلام لا يؤخذ بالتناقض، وانما هو الطبيعة نفسها خالصة من جميع المذاهب البشرية، فكل مولود يولد مسلماً بطبيعته، فيتأدى الى خير المذاهب في مدى حياته بعلمه وعقله وتذكيره، ولا يحتاج لمن يرشده اليه . فهل بعد هذا صرعى لمن يريد أن يذهب في تحليل الدين الى أبسط عناصره، وهل من فاسفة في الارض تقوى على دحضه، وقد أخرج القرآن من دائرة الامور العقلية، وأودعه حظيرة الشؤون النظرية الطبيعية ؟

فالعالم المنتهى يذهل وتأخذه الحيرة متى رأى أنه أمام مذهب هو نفسه المذهب الذي حصله وقام عليه بعد أن احترق رأسه تفكيراً فيه، وذابت نفسه تعطشاً اليه .

فاذا أراد هذا العالم المنتهى أن ينظر في أسلوب هذا الدين وفي تطبيق هذا الاصل على ما فيه من العقائد والعبادات والمعاملات، رآه قائماً على أكل الوجوه وأحكامها . وأول ما يود الوقوف عليه منه مسألة العقيدة بالخالق، وهى المسألة التي تلاعبت بها أهواء أهل الملل، فذهبوا فيها مذاهب شتى، وتحكموا فيها الى مدى بعيد، كأن الخالق مخلوق مشاهم تجرى عليه الاحكام التي تجرى عليهم، أو هو مما كان



تناوله بهذا العقل الكليل . فاذا وقف العالم المنتهى على ما هو بصدده رأى ما يكاد يذهب بلبه تعجباً ! رأى أن هذا الدين قد سد على ذويه جميع السبل التي تؤدي الى ذلك الفضول المزرى بكرامة العقول ، فوجد القرآن يقول :

« يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » ويقول :  
 « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير » . ووجد رسول الاسلام يقول : « ان الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الابصار ، وأن الملائكة الاعلى ليتطابونه كما تطابونه أتم » ، أى أن الملائكة الاعلى وهم في عالم الروح ليتطابون العلم بالله كما نتطابه نحن ، ونحن في عالم الاجساد ، فتساوينا جميعاً في الجهل به ، وان اختلفنا في وسائل التحصيل هذا الاختلاف الكبير .

هذا نص الكتاب والسنة فلا عجب أن أصبح القول بالعجز عن معرفة الله عقيدة اسلامية ، فقد روى عن أبي بكر انه قال :  
 « العجز عن درك الادراك إدراك » ، وهو أبلغ من الاشارة الى مجرد العجز ، فقد اعتبر الصديق هذا العجز نفسه علماً وهو قول في منتهى الاصابة وبعد الغور .

ووضع الاصوليون الاسلاميون هذه القاعدة العملية التي تقطع السبيل على كل محاولة فقهاوا : « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك »  
 وروى عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب انه قال ، كما ورد في مجموعة كتبه وخطبه الموسومة بنهج البلاغة ، وقد سأله بعضهم أن يصف الله حتى كأنه يراه عياناً ، فغضب الامام وقال له في كلام طويل بليغ :



« واعلم أن الراسخين في العلم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكنهم عن كنهه رسوخا ، فاقترص على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين . هو القادر الذي اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول النكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ما كوته ، وتوهت القلوب اليه لتجري في كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهي تجوب مهاوى سدف الغيوب ، متخاصمة اليه سبحانه فرجعت اذ جهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته . إلى أن قال :

« كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم ، ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم ، وجزأوك تجزئه الجسما بتخواطرهم ، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائع عقولهم . وأشهد أن من ساواك بشيء من خالقك فقد عدل بك ، والعدل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك ، ونطقت عنه شراهد حجج بيناتك ، وانك أنت الله الذي لم تتناه في الحقول فتكون في مهب فكرها مكيفا ، ولا في روايات خواطرها فتكون محدوداً مصرفاً »

هذا كلام جليل ، فان لم تصح نسبتته الى أمير المؤمنين على فهو على أية حال من مولدات المسلمين ، وفيه دلالة على حقيقة مذهبهم في



هذه المسألة الاولى . فاذا وقف العالم المنتهى على هذا التفصيل ، وسرح طرفه في غيره من المقررات الاسلامية ، وأدرك أن هذا الدين قد بنى كله على أصله الاصيل ، وهو انه هو الفطرة التي تولد عليها كل نفس انسانية ، وأن كل ماجاء فيه من التعاليم في الكتاب والسنة النبوية قائم على ما تتطلبه هذه الفطرة ، وما يقتضيه تطورها في الكمال ، وهذه الفطرة كما يشعر به كل حي سلطانها العقل وطريقتها العلم ، ودليها لواقع ، وعدوها كل ماخالف هذه الشرعة . فهل نص الاسلام على كل ذلك نصوصاً لا تقبل التأويل ، وقام صرحه المشمخر عايناً في كل أدواره في خلال العصور ؟ نعم ، وسنبين ذلك تفصيلاً في فصولنا المتتالية التي نحدد فيها شأن الاسلام مع أهل الطبقة الثانية وهم الاوساط ان شاء الله

### شأن الاسلام مع الاوساط

قلنا في مقال سبق أن طائفة الاوساط ومن في مستواهم من المفكرين أول شيء يتطابرونه من الدين أن يكون واضح المحجة ، ناهض المحجة ، فما هي محجة هذا الدين وما هي حجته التي يعتمد عليها حيال الامم والاجيال البشرية ؟ وهل كان للناس به حاجة ، وهل لا تزال هذه الحاجة داعية اليه ؟ أم جاء ليزيد عدد الاديان واحداً ، ويوسع شقة الخلاف بين المتدينين وقد بلغوا منه الحد الذي ليس وراءه مذهب لمستريد ؟

لقد رأيت في المقالة السابقة أن الاسلام هو الفطرة التي فطر الله عليها الخلق ، فلا نعود الي ذلك الكلام ولكننا نحيل القارئ اليه ،



ونزيد عليه هنا قولنا :

يعان الاسلام قبل كل شيء بأنه دين عام أنزل للبشر كافة ، وان الرسول الذي جاء به هو خاتم النبيين ، تم به عهد الوحي الالهي ، وخلي بين الانسان وعقله ، بعد أن بلغ الحد الذي يستطيع معه أن يستقل بهداية نفسه ، فقال تعالى : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وقال : « قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً » وقال : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين »

فبأى شيء أرسل خاتم النبيين ، وأى دين حمّله الى الناس كافة يصلح أن يقيمهم على اختلاف بيئاتهم ، وتباين عقولهم ، على الصراط الذي يتأدى بهم الى النهايات البعيدة ، من الترقيات الصورية والمعنوية ؟ يصرح الاسلام بأنه لم يأت الناس بدين جديد ، ولكن أتاهم بالدين الاول الذي أوحاه الله الى المرسلين كافة من أول أبي البشر الثاني نوح ، الى عيسى بن مريم عليهما السلام ، فقال في نص لا يحتمل التأويل ، ولا يقبل التحريف : « شرع لكم من الدين ما وصي به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الي أجل مسمى لقضى بينهم ، وأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل



الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لاجحة بيننا وبينكم (أى لاججاج ولا خصومة)، الله يجمع بيننا واليه المصير»

هذا كلام صريح في أن الاسلام هو الدين الذي أوحاه الله الي أول المرسلين بعد آدم، وما زال يجدد الوحي به لكل رسول حتي خاتم المرسلين، وقد تولي القرآن نفسه شرح هذا الاجمال، فقال أن الدين الاول هو القيام على الفطرة، وعدم التفرق في مذاهب التدين. وهذا كلام صريح في الدعوة الي توحيد الاديان، وحكم بات بأن التفرق فيها، على وحدة أصلها، خروج عليها جميعاً. فان النظرة الانسانية مادامت واحدة في صميم كل نفس، فلامعنى للاختلاف في مقتضياتها، إلا أن يكون ذلك بغياً من القائمين عليها، لتسخير الناس لارادتهم، وذهاب كل طائفة منهم بفريق من البشر يستغلون جهالته لاشباع مطامعهم. فأمر الله رسوله أن يبرأ الي الله من ذلك، ويصارع به الامم في مشارق الارض ومغاربها، فقال: «ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء» وأن يعان ايمانه بجميع الكتب اجمالاً، وأن لا يخاصمهم ولا ينادهم، بل وأمر أن يعدل في الحكم فيهم، راجحاً أن الله يجمع بينه وبينهم.

وقد طبع الاسلام كله بهذا الطابع الالهى، حتي أن صيغة الايمان التي أمر المسلمون أن يقولوها أصرح ما يمكن أن تكون اعلاناً له، واليك نصها من سورة البقرة: «تولوا آمنوا بالله، وما أنزل اليه، وما أنزل الي ابراهيم واسماعيل ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى،



وما أوتي النبيون من ربهم ، لا تفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون  
فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنا هم في شقاق ،  
فسيكفيهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله  
صبغة ، ونحن له عابدون .

وقال في موطن آخر من تلك السورة : « آمن الرسول بما أنزل  
إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته ورسوله ، لا تفرق بين  
أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .  
وقال في سورة آل عمران : « أغير دين الله يبغون ، وله أسلم  
من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون . قل آمننا  
بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ،  
وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا تفرق بين أحد منهم  
ونحن له مسلمون . »

وقال في هذه السورة نفسها : « إن الدين عند الله الإسلام ،  
وهو الاختلاف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ،  
ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسأمت  
وجهي لله ومن اتبعن ، وتل للذين أوتوا الكتاب والاميين أسأمت ،  
فإن أسأمتوا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنا معكم البلاغ والله بصير بالعباد .  
وقد شدد الله في وجوب الايمان بجميع الرسل ليقوم مبدأ توحيد  
الاديان على اقوى اساس ، فقال : « إن الذين يكفرون بالله ورسوله  
ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين  
ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعدنا للكافرين عذابا مهينا »



كل هذه نصوص صريحة في أن الغاية التي قصد اليها الاسلام باعلانه انه ليس بدين جديد، ولكنه هو الدين الذي أنزل على جميع الانبياء ، هي أن ينشر هذا العلم الصحيح الذي يجمله جميع الآخذين بالاديان من البشر . فالدين بمقتضى مذهبه هذا لا يجوز التخالف فيه ، وكيف تتخالف وأساسها الفطرة، وهي واحدة لدى الناس على اختلاف بيئاتهم وأجيالهم، وإنما جاءهم الخلاف من الاوهام والاهواء التي تناول بها قاداتهم العقائد بالشرح والتأويل والتحريف في خلال العصور ، لتتأدى الى تحقيق مطامعهم في تسخير النفوس واستغلال جهالتهم؟ هذا تجديد خطر الشأن في نظرية الدين، لمحله الاولون فتسارعوا الي الدخول في الاسلام بغير دعوة ، حتى قدر من دخل فيه في قرن واحد بمئة مليون نسمة ، ومنهم كثير من قادة الاديان وأولي العلم . ولكن هذا التجديد العظيم جهله سواد المسلمين منذ أجيال كثيرة فأهملوا التنويه به ، وغبي عنه الاجانب ، فوقف انتشار الاسلام عند حد ، وفقد أهله الروح التي تحرك أهل التجديد الى العمل المتواصل فجمدوا حيث هم ، ولكن هذا الامر الجليل سيتضح عند ما ينضج أهله في العلم فيستولى على قلوبهم ، ثم يتعداهم الى غيرهم ، حتى يعم نوره الارض : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »

واذا كان الاسلام قد قرر بأنه هو الدين الفطري الذي أوحى الي كل رسول ، وانه جاء لتوحيد الاديان كما باردها الي أصلها الاصيل ، وان ما فرق الناس غير بنى قاداتهم طمعا في المال والسلطان ، فقد حمل



الامة التي تأخذ به تبعة من أكبر التبعات ، وهي أن تكون للناس  
علماء يهتدون بهديها في كل طور من أطوارهم ، ومناراً يعشون الى نورها  
اذا ضلوا في متاهات مذاهبهم ، فقال تعالى : « وكذلك جعلناكم  
أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »  
فكل مسلم بحكم هذه التبعة يجب أن يكون عالماً من أعلام الهدى ،  
وسنيراً الى من حوله يلفتهم الى هذه الحقيقة الثابتة ، بهذه الحجة  
الناهضة . لهذا صار الاسلام ديناً عاماً ، وسيتضح لك مما يلي من  
البحوث أن كل أوامره ونواهيه ، ومناهجه ومراميه ، بنيت على  
هذا الاساس بحيث تصلح لجميع الناس على السواء ، وتمشى تطوراتهم  
المادية والادبية في كل الاجيال .

فهل يطمع الانسان أن يتمذهب بمذهب أوضح من هذا محجة ،  
وأقوى حجة ، وأبعد مرمى ، وأصدق مغزى ، وأولى بالانسانية  
في تطوراتها المتعاقبة ، وأجدى عليها في انقلاباتها المتوالية ؟  
أى دين في الارض يقوم على غزيرة طبيعية في النفس ، ثم يعتمد  
في بناء صرحه على ساطان العقل ، فيجعل من هذا البناء السامق  
لاشكلا غير قابل للتحويل ، ولكن عملاً هندسياً دقيق الصنعة يقبل  
التحويل في كل جزء من اجزائه ، ليطابق الواقع ويمشى الحاجات دون  
أن يصاب اساسه بوهن ؟

ثم ماذا تنتظر من رسول يقول انه خاتم المرسلين أكثر من أن  
يقعد لك الدين على اساس طبيعي لا يمكن هدمه ، بل ولا وصول المعاول  
اليه ، وان يجعل العقل دليلك في كل ما يؤاتيك به من عقائد وعبادات



ومعاملات ، وأن يجيئك بنظرية في التدين تعتبر أقصى ما يدفع النظر العلمي اليه ؟

أليس الذي يأتيك بكل هذه النهايات جديراً بأن يكون خاتم النبيين ، والكتاب الذي يقدمه لك أهلاً بأن يكون خاتمة للوحي الالهي ؟ « واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتأمنن به ولتنصرنه ، قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون » « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين »

في الفصول التالية ننظر في بقية مطالب الطبقة الوسطى التي نحن بسبيلها إن شاء الله

### الاسلام يعلن سلطان العقل والعلم

قلنا في المقال السابق إن الاوساط يتطلبون من الدين أن يكون واضح المحجة ، ناهض الحجة ، وبيننا لهم محجة الاسلام وحجته ، والآن نأتى على مطلب ثان لهم وهو أن يكون الدين مماشياً للعقل في غاياته ومراميه ، ومسائراً للطبيعة في أوامره ونواهيه . فنقول : إن الانقلاب الكبير الذي أحدثه الاسلام في أمر الدين أظهر ماتكون عوامله في هذا الموطن ، موطن المناداة بسلطان العقل ، والمجاهرة بسيادة العلم ، فسمع الناس لأول مرة في تاريخ الاديان كلمات :



تفكير ونظر وبرهان وتبعية شخصية وبطلان للتقليد.  
 كان الناس قد استعدوا بعد طول مقام على الاعتقاد بلا برهان ،  
 والتقليد لغير معصوم ، للدخول في دور الرشد، والاستقلال الذاتي  
 عن الاوصياء والقائمة ، والمتحكيمن في نفسياتهم وعقلياتهم ، فأرسل  
 الله محمداً بالاسلام لافتتاح هذا العهد الكريم، والنداء بالدين العام  
 الخالد، الذي أريناك في الفصل السابق أى شىء هو . فكان أول  
 شىء وجه اليه عنايته تحطيم القواعد التى يقوم عايتها التدين في دور  
 القصر وهى التقليد الاعمى ، واهمال النظر الشخصى ، واغفال التفكير  
 الحر ، ومنازعة العلم، الا ما كان منه موافقاً للدين في نظرهم ، ومؤيداً  
 لسلطان المتحكيمن في إرادات الناس وعقولهم ، فأهاب الاسلام  
 بالناس الى اعتبار العقل ، وسيادة العلم، ودعا الي النظر والتفكير ،  
 وتطلب البرهان ، واشتد في هذه الدعوة الى حد انه لو عد ماجاء  
 في القرآن من قوله تعالى : ( أفلا تعقلون ) ( لعالمهم يتفكرون )  
 ( أفلا تذكرون ) الخ الخ لتعدت العشرات . ولو أضيفت اليها الآيات  
 التى تطالب الناس بتنبية قواهم العقلية ، ورفض ما لا يعززه برهان ،  
 وترك كل ما لا يؤيده علم ، ونبذ التقليد للآباء الخ لبلغت المئات ، فان  
 القرآن كله قائم على هذه الاصول ومروج لها ، حتى ليتجلى لتاليه انه  
 ازاء انقلاب فكرى خطير الشأن، لاشبيه له في تاريخ القرون الماضية ،  
 بقصد احداث ثورة على كل قديم، الاموافق العقل والعلم منه .  
 وكيف كان يتأتى للاسلام أن يسلك غير هذه السبيل في حل  
 الاديان المعقودة على أسس التقليد الاعمى ، والقائمة على قواعد الاتباع



المجرد من النظر، الابهدم هذه الاسس والقواعد البالية، ونسفهانسفاً، حتى يشكك هذه الاشباح الانسانية فيما تدين به ولا تفكر فيه ، وفيما تتعبد له ولا تستأنس له بحجة .

نعم لاسبيل للاسلام الى النفوذ لقلوب الامم غير محق الغلف الفولاذية التي وضعها عليها قادة الاديان، ليحجبوا عنها أنوارالعقل، ولكي لا تنبض إلا بارادتهم ، ولا تتحرك إلا تحت املائهم .

أمسك هؤلاء بمخنق الانسانية فاستسلمت لهم طائعة أجيالا ، لان العقل لم يكن قد نضج للاستقلال بنفسه ، فكان من مصاحبة هذه الاكداس البشرية أن تقاد بمثل هذه الشكائم الحديدية . فاما بلغ الانسان سن الرشد، نسخت هذه السنة وتولد عهد جديد اقتضت الحكمة الالهية أن تجعل على رأسه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقام به خير قيام ، وأقعبه على أرسنخ الوطائد، ثم تركه لرجال جروا على سنته ، فانتشر الاسلام في نحو قرن من الزمان بلادعوة ولا اكرام،الم ينتشره دين غيره الا في قرون، وبالحديد والنار . فقد كان غزاة أوروبا يفتتحون البلاد ومعهم دعاة الدين ينشرون دعوتهم في تلك الظروف الرهيبة ، ولهذا الدعوة تاريخ أى تاريخ، لاندكر منه حرفا إلا اذا هاجناها إلى اليه . فاجأ الاسلام الناس بأصل لم يكونوا يحامون به ، ولا يتوقعون أن يسمعوه في عهد من عهودهم ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « الدين هو العقل ، ولادين لمن لاعقل له » . وكانت سنة قادة الاديان قبل ذلك في مشارق الارض ومغاربها كما قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر « اطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى » .



ثم عزز الاسلام هذا الاصل بأصل ثان ليس بأقل من الاول  
دعوة الي الثورة في الدين ، وهو النهي على التقاليد والموروثات ،  
وعلى المقلدين للآباء والاجداد ، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ،  
فقال تعالى : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا  
عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم ( لا يعقلون شيئاً ) ولا يهتدون » وقال :  
« واذا قيل لهم آلموا الى ما أنزل الله والي الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا  
عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم ( لا يعلمون شيئاً ) ولا يهتدون »

وليس بخاف أن الجري على سنة السلف من أخس صنمات المتدينين ،  
وأكثر مآب الفساد الى الأديان كان من هذه الناحية ، حيث تتقوى  
العقيدة الدينية بالعاطفة القومية ، وترسخ في النفوس رسوخ غرائزها  
الطبيعية . وهذه علة ابقاء الامم ، حتى الراقية منها ، على عقائد لا تحتمل  
النظر المجرد فضلاً عن النقد ، ولذلك تشدد الاسلام في هدمها الي حد  
أن هذا التشدد اتخذه أعداؤه عوناً لهم في أبطال دعوته ، واثارة  
النفوس لكرهاته ، ولكنه لم يبالي بذلك لان نشر الدين العام الخالد ،  
والناس في مفتح عهد الاخوة العالمية ، لا يتأتى إلا بالتعفية على هذه  
الآثار الموروثة ، التي تصد الامم عن الوحدة المرجوة .

وهذا الجهد لا يشمر ثمرته المنتظرة إلا بايقاظ العقل ، وتنبيه  
غريزة التفكير والنظر الحر ، والنهي على الآخذين بالظنون والاهام ،  
فأكثر الاسلام في هذه المواطن من الدعوة الي كل ذلك في ألوان  
شتى لتبلغ مواطن الاقتناع من الصدور ، وتدفع بالانسان الي تماس  
المخرج ، فقال تعالى : « قل انظروا ماذا في السموات والارض »



« أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »  
 « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الالباب » « لا يسترى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور » ،  
 « إئتوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة من علم ان كنتم صادقين » ،  
 « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أتم الا تخرسون » ، « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »

« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الا تنمس ولتقد جاءهم من ربهم الهدى » « ان يتبعون الا الظن وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً »  
 « أمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم »  
 ثم شفع هذه الآيات الناعية على المعتقدين تقليداً بالتنويه بالتبعية الذاتية، وبأن أحداً لا يغني عن أحد شيئاً ولو كان نبياً مرسلًا ، أو ملكاً مقرباً ، فقال : « كل أمرىء بما كسب رهين » وقال : « ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » وقال :  
 « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »  
 وقال : « ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به » وقال : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » وقال : « وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً » وقال : « اذ تبرا الذين اتبعوا ( بالبناء للمجهول ) من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا ( بالبناء للفاعل ) لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ،



وفما هم بخارجين من النار »

« هذه الآيات ومئات من أمثالها تساور السامع من كل مظان الإقناع فلا تزال به تكافح التحجج التقليدي فيه حتى تكشف عن الفطرة الانسانية، فتهدم وتتطلب الفهم وتتحرى الدليل ، ولا تسكن الي الاتباع دون أن تعرف في أى طريق يجري بها، والى أية غاية يؤديها. وقد رفع الله من شأن العلم حتى جعله النور الذى لا محيص لكل حى عن تطلبه ، وأشاد بذكر العلماء الى حد أن اعتد بشهادتهم في حقه، فقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » قدرها ابن عباس بسبع مئة درجة . وقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط »

ومن أشد ما يدفع بالنفوس لطاب العلم ، ومن أعجب ما أثر من الاشادة بفضله ، قصر الصفات العليا التى يتهالك الناس على الحصول عليها، على أهل العلم دون سواهم، لانه لا يبلغها غيرهم، فقال تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » وقال . « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » وقال « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين »  
بكسر اللام فيهما

أما ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب فلا يكاد يحصيه متتبع ، منه قوله : « مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة » وقوله : « فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد » والفقيه معناه الفهم والعلم، وقوله : « اطلبوا العلم ولو بالطين »



والمراد بالعلم ما يرفع الجهل وينمي العقل وينبه ملكات النفس ويكشف الحقائق الوجودية ، ودليانا على ذلك نمت القرآن للناس الي تنور أسرار الكون ، وهو مستقر كل علم ومستودع كل سر كقوله تعالي : « قل انظروا ماذا في السموات والارض » وقوله : « وكأين من آية في السموات والارض يرون عليها وهم عنها معرضون » وقوله : « ويتفكرون في خلق السموات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا » . والتفكير في خلقهما يؤدي حتما الي العلم بهما ، وهو مراد القرآن ، ودليانا العملي على ذلك أن العرب بعد وفاة النبي بست سنين ( كما يقول العلامة درابر ) ، شرعوا يطلبون العلم ، فلم يدعوا فرعا من فروعه الا حدقوه ، وصاروا أئمته ، فلو كان الاسلام يريد بالعلم العلوم الدينية لوقفوا عند حدودها كما فعل المسلمون في العصور المتأخرة . ومن أغرب ما يرويه الراون في تاريخ الاسلام ، انه لابتناؤه على العقل والنظر والتعلم والبرهان ، قرر الاصوليون أن الايمان التقليدي في عقائده غير مقبول ، فلا بد لكل معتقد من أن يكون لديه الدليل على كل ما يأخذ به بقدر درجته من العلم .

فهذا الاصل في الاسلام يوجب الدهش والحيرة ، اذ لا يوجد ما يشبهه في الاديان ولا ما يقرب منه . ولكن لو علم الباحث فيه انه دين عام خالد لزال دهشه ، فان الامم وقد ضربت في العلوم بأوفر السببوم ، وستنال منها ما لا يخطر ببال لا تقبل عقيدة الاعلى هذا الاسلوب . على هذا النحو فتح الاسلام الاعين للنظر ، والعقول للفهم ، والقلوب للشعور ، فنهض قبضة من رجال أسعدهم الحظ بمعاصرة



خاتم المراسين بنشر هذه النفحة الالهية في الارض ، فتألبت عليهم الامم حتي الامة التي هم من صميمها ، فارتدت جزيرة العرب كلها عن الاسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتصايحت الي السلاح ، فأمكن الله هذه الفئة القليلة من هذه الجماعات الغنيرة ، ثم اندفعت الي خارج بلادها تنشر هذا النور في بقاع خيم عليها الظلام قروناً ، محاولة أن تخرجها منه الي النور ، قال العلامة ( سديو ) المؤرخ الكبير ومن وزراء فرنسا السابقين في كتابه تاريخ العرب : « لقد كان المسلمون متعمردين بالعلم في تلك القرون المظلمة فنشروه حيث وطئت أقدامهم وكانوا هم السبب في خروج أوروبا من الظلمات الي النور » .

فما يطلبه الاوساط من الدين في هذا الموطن مرجود في الاسلام - على أوسع ما يرجون ، وقد بنى الصرح الاسلامي الباذخ كله على هذا الاصل الكريم ، كما سنبينه في مطالبهم الاخرى في فصول متواليه هنا ان شاء الله .

الاسلام لا يضع للرقى حداً ، ولا يوصد

على العقول مجالا

المطلب الثالث للاوساط من الدين أن لا يضع للرقى حداً ، وأن

لا يوصد على العقول مجالا .

أما الاسلام من هذه الناحية فلا أقول انه يوفي بهذا المطلب بحسب ، بل أقول انه يفرض الترقى على الآخذين به فرضاً ، ويدفع بهم الي كل باحات العقول دفعاً . والافكييف تفسر انتقال العرب بعد اسلامهم من عداد الامم الجاهلة المسودة ، الي مصاف الامم العاملة السائدة ، استغفر الله بل الي صف فوق الصفوف صارت فيه



وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الامم . وقد اعترف الكافة لها بالزعامة في ذلك قرونا طويلة ، كانوا فيها يؤمنون عواصمها يأخذون عنها العلم والحكمة وأسرار الصنائع والفنون . ولا يزال المؤرخون من جميع النحل يرددون هذه الحقيقة . أليس هذا لان الاسلام يفرض الرقى فرضاً ، ولا يكتفى بأن يسمح به سماحاً . أن قول الله تعالى : « وما أوتيتم من العلم الا قليلاً » وقوله : « وقل رب زدني علماً » وقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا العلم ولو بالصين » وقوله : « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت » أى ولو خرجت من فم آثم أو كافر ، فان الحكمة تلتقط حيث كانت ولا يؤثر على قدسها شيء . كل هذه الآيات والاحاديث فرضت على المسامحين العلم ، ودفعت بهم الى مباحثه دفعاً ، والعلم يؤدي الى الترقى لا محالة ، بل هو طريقه الوحيد في كل أدوار البشر .

أى علم ؟ العلم على اطلاقه بكل ما يحتمله لفظه ومعناه ، وبكل ما يؤدي اليه في الحياة . فان الدين الذى يفرض على ذويه النظر في السموات والارض ، والذى يقول انه يضرب للناس الامثال وما يعقلها الا العالمون ( بكسر اللام ) ، والذى يرفع من شأن أهل العلم بحيث يستشهد بهم في حقه ، والذى يقول رسوله : « فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد » ويقول : « ففكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » ، قلنا أن الدين الذى يفعل هذا يدفع بأهله تهرأ الى طلب العلم ، وطلبه يهجم بهم على أطوار من الترقى لا تطوف بخيالهم



قبل الدخول فيها . والا فمن ذا الذي كان يتوهم أن العربي الذي كان يتخيل أن القمر له غلاف اسمه الساجور يدخل فيه كل شهر مرة ثم يخرج منه يسيراً يسيراً ، ليعمل بذلك أطواره المختلفة من هلال الي بدر ، يصبح بعد مئة وخمسين سنة يعرف من أحوال هذا الكوكب ما يعرفه أكبر الفلكيين اذ ذاك ؟ .

ومن الذي كان يتخيل أن ذلك العربي الجاهل يصبح بعد تلك المدة القصيرة ويبيده قبس من العلم يعيشو الى نوره العالم من جميع أرجاء الارض ، يأخذون عنه ما جعله الله أميناً عليه دون خلقه ، فكان الحافظ لميراث الانسانية العقلية من ناحية ، والواسطة في احيائه ، وتسهيل سبيل الانتفاع به من ناحية أخرى . .

من ذا الذي كان يستطيع أن يتخيل هذا لولا أن الاسلام قد أوجب على متبعيه الاتقياد لنا موسى الترقى ايجاباً ، لانه قد أباحه لهم تخيراً ؟ هل وضع الاسلام لهذا الترقى حداً ، وهل للترقى في نظر الاسلام حد يقف عنده ؟

أن الدين الذي يقول لمتبعيه « ويخلق ما لا تعلمون » ، يفتح أمامهم باحة اللانهاية ، فلا يدع في أنفسهم حاجة الي السؤال عن الحدود والغايات . لذلك رأيت المسلمين الاولين بعد وفاة نبيهم بست سنين ، اندفعوا وراء العلم اندفاعهم وراء الحياة . ولا عجب فان الدين الذي يقصر الصفات العليا للنفس ، والغرائز الكامنة فيها ، على أهل العنلم وحدثهم فيقول : « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » يرون في العلم الحياة كل الحياة .



هل وضع الاسلام لشهوات العقول حداً، هل أو صدق وجهها مجالاً؟  
 اللهم لا، بل أباح لها أن تجول في كل مجال، وأن تجوس خلال  
 كل مجهول تظن أن وراءه فائدة مادية أو معنوية، وقد ندب الاسلام  
 المسلمين الي تعلم اللغات الاجنبية، فنبغ رجاله في اليونانية والفارسية  
 والسرانية والهندية، وحضهم على تعلم كل علم حتي العلوم المعروفة  
 بأنها باطنية أو ظلمانية، ان لم يكن للانتفاع بها فلا لقاء الضرر الذي  
 يجي من قبائها، كالعلوم الطاسمية ( بكسر الطاء وتشديد اللام من توحه )  
 والسيمياء واسرار الحروف والتنجيم الخ الخ

ومن من الناس يخطر بباله أن الاسلام يسمح بتعلم السحر، وهو  
 من أخص العلوم الظلمانية، وقد أعدم مئات الالوف من المتهمين به  
 في الامم، والقوا في النار أحياء، ولا تزال بعض القوانين الاوروبية  
 تعاقب من يشتغل به ولو من ناحية التجارب العامية، وادراك العوامل  
 النفسانية الخفية .

لم يحرم الاسلام من هذا كله الا العمل به، حتي قال المسلمون  
 في أمثالهم « تعلم السحر ولا تعمل به »

هذا سماح عظيم، بل مراعاة حققة للطبيعة البشرية، فان الانسان  
 مدفوع بطبعه لأن يرود كل مجهول، ويتحسس من كل محبوب،  
 ويرمى بنفسه الي كل مرمى ولو كان وراءه حتفه، فالدين الفطري الماشي  
 لطبائع النفوس لا يسمح أن تؤصد على العقول باحة، ولا أن يحد  
 لرمياتها حداً. ولو فعل ذلك لكسر الناس كل قفل وضعه، وتعدوا  
 كل حدر سمه، وأصبح ديننا خيالياً يعرف ولا يعمل به، والاسلام



لا يريد الا أن يكون دين العالمين من ناحية عمالية لا خيالية .  
 ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين لم يكتفوا بالشغل بجميع هذه  
 العلوم الباطنية والظلماتية ، ولكنهم ألفوا فيها كتباً لاتزال موجودة  
 الى الآن ، منها المطبوع ومنها المخطوط ، وكثير منها محفوظ بدار  
 الكتب الملكية ، وفي مكتبات الافراد في كل البلاد الاسلامية .  
 ومن أغرب ما زويه أن العرب اشتغلوا كثيراً بكيمياء الذهب ،  
 ووصلوا منها الى نتائج عملية ، اذ ذكر بعضهم انه قد أنجح فيما تصدى  
 له ، وليس لنا أن نكذبهم كما كنا نفعل قبل سنين معدودة ، اذ أعلن  
 في أوروبا وأمريكا بأن الكيمياء الرسمية قد توصلت الى عمل الذهب .  
 ومن الغريب أن العرب جعلوا الزئبق أساساً لمحاولاتهم من هذه  
 الناحية . وقد ثبت أخيراً أن الزئبق هذا هو الذهب مخلوطاً باوكسيد  
 الكبريت ، وانه متى سحب هذا الاوكسيد منه بقي الذهب خالصاً  
 من كل شائبة .

وثبت أيضاً كما رواه الاستاذ درابر الامريكى وغيره أن العرب  
 بحثوا في مذهب التطور ، ودرسوه في بعض جامعاتهم بأوسع مما  
 يفعل الاوروبيون اليوم ، اذ سروا عوامل التطور نفسها على المعدنيات .  
 ولا يبعد أن يثبت أيضاً انهم قد اكتشفوا أمريكا قبل كريستوف  
 كولومب بقرون كثيرة ، وجمهرة من رجال العلم في أوروبا يرون أن  
 أسراراً علمية مما كان يعرفه المسامون لاتزال محجوبة عنهم ، فلذلك  
 نجدهم يدأبون على استخراجها للانتفاع بها ان أمكن .

نكتفي اليوم بهذا ونرجى الى الفصل التالي بعض ما يلى هذا



من مطالب الاوساط من الدين وبالله التوفيق .  
 الاسلام لا يحرم شيئاً مما تشعر النفس بضرورته من المباحات ،  
 ولا يضيق ما اتسع من المحاولات  
 المطلب الرابع من مطالب الاوساط من الدين أن لا يحرم شيئاً  
 مما تشعر النفس بضرورته من المباحات ، وأن لا يضيق ما اتسع من  
 المحاولات ، فانه حاول اليوم بيان مذهب الاسلام في هذا الباب فنقول :  
 الاسلام بموجب أصوله ، وتركيب بنائه ، دين علم وحضارة  
 وما يؤدى الى من فتح واستعمار وتنافس وتنازع وغاب ( بفتحيتين ) ،  
 فمثل هذا الدين ينافى بطبيعته الاستكانة والتموت اللذين يريان على  
 جماعات المتدينين في الارض . فلقد كان الرجل في فجر الاسلام يأتى  
 فيبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الدين ، ثم يبادر فياً خذ مكانه من  
 من الصوف ، إما مجاهداً لنشر الدعوة ، أو مدافعاً يذود الاعداء عن  
 حرم الاسلام . لهذا رأينا عمر بن الخطاب ، ومن هو عمر ؟ يضرب  
 بدرته شاباً رآه بحضرته متخاشعاً منكساً رأسه ، قائلاً له « ارفع  
 رأسك فان التقوى في الصدر »

وكان النبي صلى الله عليه وسلم على جلاله قدره ، وسمو منصبه ،  
 يسرع في مشيته كأنه ينحدر من صلب . قال أبو هريرة : « مارأيت  
 شيئاً أحسن من رسول الله كأن الشمس تجري في وجهه ، ولا رأيت  
 أحداً أسرع في مشيته منه ، كأنما الارض تطوى له وانا لنجهد أنفسنا  
 وانه لغير مكترث »

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم في نص صريح عن الغلو في الدين



فقال : « لا تغلوا في دينكم فانما هلك من كان قبلكم بغلوهم في دينهم » وقال : « الاسلام متين فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه »

لا عجب في هذا كله فمحمد كان مؤسس دولة عهد اليها الحق أن تحدث حدثا لا مثيل له في تاريخ البشر ، تسقط به دولا وتقيم أخرى ، وتنشر في الارض أصول الثورة على التقاليد والمورثات ، وتبني سلطان العقل على أرسخ القواعد ، وتبرر الانقلابات الاجتماعية فتجعلها سببا من أسباب الارتقاء .

لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن يرى أصحابه منهمكين على العبادة ، غير مراعين حقوق أجسادهم ، لان الحدث الجلل الذي أرسل لتحقيقه في العالم يتطلب أجسادا قوية ، و ارادات حديدية ، وكان يحثهم على المحاولات الرياضية كركوب الخيل والسباحة والرمية والمماصة بالسيوف .

وقد جاء في الحديث انه لحق به في تهجده رجال كانوا يصلون خلفه ، ثم رأهم يكثرون ليلة بعد أخرى ، فمنعهم خشية أن يفرض التهجد عليهم فيضعفهم .

وفيه انه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : « ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال نعم يا رسول الله وأنى على ذلك لقادر . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا ، بل قم ونم وصم وأفطر فان لبدنك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وان لزورك (أي لزائريك) عليك حقا ، الخ » وقال : « من صام الدهر فلا صام ولا أفطر » دعاء عليه



وفي سيرة النبي والسلف الصالح من هذا الضرب كثير . ولا أظن  
 مؤسس دين أو قائماً عليه في الأرض ينهى أحداً عن الغلو في هذه  
 المواطن ، بل كثيراً ما شجعوا عليه . (الطبيعية سمع عن الإعداء تكون  
 ومن أغرب ما في هذا الباب أن في الدين عزائم ، أي أموراً لا تقبل  
 الهوادة في الأحوال العادية ، ولكنها تقبها في السفر والمرض والإعداء ،  
 المشروعة وتسمى رخصاً ، ولكن بعض الناس كانوا يتجاوزون عن  
 هذه الرخص غلواً في محافظتهم على أوامر الدين ، واعتماداً على قوة  
 بناتهم ( جمع بنية ) ، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله :  
 « أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » وقال :  
 « من لم يأخذ برخصنا فليس منا »

فهذا غريب من مؤسس دين ، ولكن لو تذكرت أنه مؤسس  
 الدين العام الخالد ، الذي سيكون دين البشرية كلها إلى قيام الساعة ،  
 وأن هذا الدين يجب أن يكون عملياً لا خيالياً أدركت سر هذا الأمر .  
 إن أكثر الناس ، وبخاصة في هذا العصر المادي ، يشعرون بانقباض  
 في الصدر إذا ذكر الدين أو ذكر أهله ، لأنهم اعتادوا أن يسمعوا عنه  
 زهداً في الحياة ، ونبواً عن مباحها ، وانصرفوا إلى ما بعد الموت  
 لا يدع للنفس متسعاً لمتعة مادية . وانهم اعتادوا أن يسمعوا عن رجاله  
 الانقطاع عن الدنيا والاقبال على العبادة وتحريم كل ما يلهي النفس ،  
 أو يروج عن القلب . والواقع أن ما بلغهم أو رأوه ليس بصورة صحيحة  
 للإسلام ولا لأهله الذين عرفوه حق معرفته واتبعوا أسلوبه في الحياة .  
 فمن شاء أن يعرف المثل الأعلى للإنسان المسلم فعليه أن يدرس



ما كان عليه رسول الاسلام من أمور الحياة تاركا كل من عداه ،  
 فليس أحد بأجدر منه بمعرفة مراد الله من الدين ، وما يجب أن يكون  
 عليه الانسان بين أهله ومواطنيه . فقد روى الامام الترمذى في كتاب  
 الشمائل في اسناد عن الحسن بن علي قال قال الحسين سألت أبي عن  
 سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في جاسائه فقال : « كان دائم البشر  
 سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش  
 ولا عياب ولا مشاح . يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه راجيه  
 ولا يخيب رجاءه فيه . قد ترك نفسه من ثلاث : المرء والاكثر  
 وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يعيبه  
 ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه . واذاتكم أطرق جلساؤه  
 كأن على رؤوسهم الطير ، فاذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده  
 الحديث ، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتي يفرغ ، حديثهم عنده  
 حديث أولهم ، ويضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون  
 منه ، ويصبر للغريب على الجنوة في منطقته ومسالته حتى انه كان  
 أصحابه ليستجابونه ( وقصد هم من استجلابهم أن يكثروا سؤاله  
 فيستفيدون هم من أجوبته ) ، ويقول اذا رأيت طالب حاجة يطالبها  
 فاردوه ولا يطاب الشاء إلا من مكافء ، ولا يقطع على أحد حديثه  
 حتى يجوز فيقطعه بنهي أوقيام »

هذا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي المباحات كلها  
 ولا يتخرج الامن المحرمات ، والمحرمات في الاسلام محرمات في العقل  
 والطبع والوضع ، فكان يلبس ما يلبسه الناس مسلمهم وكافرهم حتى



انه لبس الجبة الرومية ذات الاكمام الضيقة ، والقطنسوة الفارسية  
 الجوسية . وكان يرجل شعره بالمشط ويدهن بالطيب ، وكان يتكلم  
 في كل موضوع مع أصحابه . قال زيد بن ثابت من حديث : « فكنا  
 اذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، واذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ،  
 واذا ذكرنا الطعام ذكره معنا » . وعن جابر بن سمرة قال . « جالست  
 النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مئة مرة ، وكان أصحابه يتناشدون  
 الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم »  
 وكان هو نفسه ينشد الشعر ويصفي الى من ينشده ، ويستحسن  
 الحسن منه ويحيز من يمدحه به ، وقد أشاد بذكره فقال : « أن من  
 الشعر لحكمة » ودعا لشاعر فقال : « لافض الله فاك »

وكان يمزح ويداعب أصحابه فقد روى أنس بن مالك أن رجلا  
 طلب الي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحمله . فقال له اني حاملك  
 على ولد ناقة . فقال يارسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ ظنا منه انه  
 سيعطيه فصيلا . فقال له وهل تلد الابل إلا النوق ؟

وروى أنس هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم صادف رجلا اسمه  
 زاهر وهو يبيع متاعا له ، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره . فقال  
 زاهر من هذا ؟ أرسلني . ثم التفت فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ،  
 فجعل النبي يقول من يشتري هذا العبد ؟ مداعبة له

وحدث المبارك بن فضالة عن الحسن قال : « أتت عجوز النبي  
 صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله أدع الله أن يدخلني الجنة .  
 فقال النبي يأم فلان أن الجنة لا يدخلها عجوز . فولت المرأة تبكي .



فقال النبي أخبروها انها لا تدخلها وهي عجوز ، ان الله يقول إنا  
 انشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً «  
 ودخلت عليه امرأة في شأن لزوجها ، فقال لها النبي أزوجك الذي  
 في عينيه بياض ؟ فظنت المرأة انه يريد بالبياض ما يصيب سواد العين .  
 فقالت لا يارسول الله . فتبسم وقال لها أتخلو عين انسان من بياض ؟  
 حدث سعيد المقبري عن أبي هريرة أن بعض أصحاب النبي قالوا  
 له يوما يارسول الله انك تداعبنا . فقال نعم غير اني لأقول الإحقا .  
 فاذا كان رسول الله وهو الذي كان يجوع حتى يشد على بطنه  
 حجراً وحجرين زهداً في متاع الدنيا ، ويقوم الليل متهجدا حتى  
 ذكر الله له ذلك في الكتاب ، وله من مشاغل منصبه ماتوء به الجماعة  
 اولوالحول والقوة ، يصيب من هذه المباحات ما يروح به تموس  
 أصحابه ، ويستجهم به من نشاطهم وقواهم المعنوية ، فهل يسوغ لاحد  
 ان يمثل الدين عابس الوجه قطوبا ، اذا سلك طريقا سلك الناس غيره  
 مجافاة له وهربا من تكاليفه ؟

على ان في الكتاب آيات لم يجيء لها ضريب في أديان البشر ،  
 وهي قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات  
 من الرزق » وقال : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » وقال :  
 « فكلوه هنئما مريئاً »

فالدين الذي يصرح بأنه لم يحرم التزين ولا المتاع بالأكل الطيب ،  
 ويتخذ رسوله خاتما من فضة ، وغاشية لسيفه فيها ذهب ، كما رواه الامام  
 الترمذي في شمائله ، ويندب الي الرياضة البدنية حتى المصارعة ، وقد



صارع هو نفسه ركانة أقوى الناس عليها قبل الاسلام فصرعه ، ولا يخفى مالرياضة البدنية اليوم من المنزلة عند أرقى الامم ، قلنا الدين الذى يصرح هذا التصريح ، ويبيح هذه المباحات ، ويكون رسوله من حسن الطريقة فى الحياة على ما علمت ، لا يصح أن يمثل للناس على غير صورته الصحيحة ، فيهرب الناس من وجهه ، ويفرون من أهله ، ولا يذكرونه الا فى معرض التكليف الشاقة ، أو أحوال الموت وما بعده .

هذا هو الاسلام من ناحية المباحات ، أما من ناحية الشق الثانى وهو أنه لا يضيق ما اتسع من المحاولات ، فكيف يعقل انه يعتمد الى تضيقها وهو الذى أعطى العقل سلطانه المطلق يجول فى كل مجال ، ودفع بالناس فى الحياة غير مقيدين الا بما تشعر الفطرة السائمة بوجوب التقيد به ؟

إن الدين الذى يقول لاهله : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » الحديث ، والذى لا يقصر العبادة على الاعمال الشكوية التى عرفت عنها ، فيعتبر كل ما يقصد به الخير عبادة ، فطلب العلم عبادة ، وطاب القوت عبادة ، وتألف الناس عبادة ، وعبادة المريض عبادة الخ حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان المؤمن ليؤجر فى كل شىء حتى فى اللقمة حتى يرفعها الى فى امرأته » فالدين الذى يكون على هذه الشاكلة لا يعقل أن يضيق على أحد ما اتسع من المحاولات ، وقد رأيت فى تاريخ أهله انهم بنوا لدينهم وأمتهم مجدا من هذه الناحية لا تطمس آثاره ، ولا تعفو معالمه ، ولكنها ستزداد



وضوحاً وجلاءً كلما ازداد الناس علماً وارتقوا في معرفة الحق  
ننظر في النصل التالي في مطلب آخر من مطالب الاوساط ان شاء الله  
الاسلام مرناً يسع كل ما يجد من الآراء العلمية  
والمذاهب الفلسفية

من مطالب الاوساط من الدين أن يكون مرناً يسع ما يجد من  
الآراء العلمية ، ولا يستعصى على ما ثبت أو يرجح من المذاهب  
الفلسفية ، ولا ما يقوم الدليل عليه من الشؤون الكونية ، فننظر الآن  
في هذا المطاب فنقول :

قائل على الاسلام أن يوصف بالمرونة وسعة الصدر للآراء والمذاهب  
والكونيات ، لانه دين اطلاق وتعقل وتفكير ومطالبة بالفهم والدليل ،  
وإشعار بالتبعية الشخصية ، ونهى عن التقليد ، وقد كان الناس الي  
عهده أسرى الاوهام والاضاليل ، وصرعى الموروثات والتقاليد ،  
ليس في الدين فحسب ولكن في العلم أيضاً .

نعم في العلم الذي ينخر اليوم بأنه أطاق العقل من إساره ، وخلصه  
من أغلاله ، وأقعد المعلومات على أساس الواقع المحسوس . العلم  
صادق فيما يدعى ولكن منذ القرن السابع عشر فقط على يد العلامة  
الانجائيزى ( با كون ) .

اما الاسلام الذي سبق ( با كون ) بنحو الفسنة فانه بمثل هذه  
الآيات : « قل انظروا ماذا في السموات والارض » « افلم يسيروا  
في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » « وما او تيتيم من العلم الا قايلا »  
« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « وقل رب زدنى علماً »



« ويخلق مالا تعلمون » « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها  
 الا العالمون » « ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده  
 من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » أي آياته وحكمه . وبمثل  
 هذه الآيات في النسخ على الخياليين والمقلدين : « إن يتبعون إلا الظن  
 وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » « قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا  
 أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » « قل هاتوا برهانكم  
 إن كنتم صادقين » ، وبمثل هذه الآيات في وجوب التثبت والتدقيق :  
 « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك  
 كان عنه مسئولا » « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة  
 الدنيا وفي الآخرة » بمثل هذه الآيات أقام الاسلام العلم على أساسه  
 الطبيعي الثابت ، ودفع بأهله الى غاياته البعيدة . فالدين الآتي بهذه التعاليم  
 قليل عليه أن يوصف بالمرونة ، لانه جاء بما هو فوق المرونة وهو  
 فرضه العلم فرضاً فقال « طاب العلم فريضة » والدعوة الي تطلبه ولو من  
 أقصى المعمور فقال : « اطلبوا العلم ولو بالصين »  
 فهل ما نقوله هنا غلو قضى علينا به التحمس للدين ، والتذرع  
 لكافة المشككين ، أم هو الواقع المحسوس الذي لا معدل عنه مهملة  
 حاول ذلك المحاولون ؟

اننا ندع للقاريء حرية الميل لاي الاحتمالين شاء بعد أن يصغى  
 الي ما نقول :  
 جاء الاسلام الي العرب في عهد كانت فيه حياتهم الاجتماعية قد  
 استوتت على قرار منذقرون ، فأهل البداوة منهم كانوا اهملاً ، ومن الفوضى



بجيت كانوا يتناحرون . وكان من جاور الفرس والروم منهم قد وقعوا تحت نير هاتين الدولتين منذ قرون ، واستخذوا لهذه العبودية وألفوها ولم يحركوا ساكناً لرفع نيرها عنهم .

زد على هذا أن الأمة العربية كانت تكاد تكون وحيدة في عقمها من الناحية الكتابية ، فلم تترك لنا كتاباً واحداً حتى ولا ما تحرص عليه كل أمة من مخطوطات دينية ونقوش طلسمية .

جاء الاسلام الى هذه الأمة وهي في هذا الدور من الجاهلية الجهلاء ، فصاح بها صيحات تحمل في تياراتها نفحات من روح الحق ، فهبت من سباتها العميق تتطلب الحياة ، وقامت على طريق التطور الاجتماعي ، فما مضت عايتها مئتا سنة حتى أصبحت صاحبة الخلافة العلمية والسياسية في الارض ، وكانت سبباً مباشراً في حفظ تراث الانسانية من ثمرات العقول ونتاج الفهوم .

فهذه الحركة العلمية القوية فيها منشآت الابناعت لا يعاصي من الاسلام ، وما التجهت وجهتها الا تحت املائه ، وما توسعت وامتت بجميع فروع المعارف الا بسائق منه . وقد شهد بذلك جميع مؤرخي العالم قديماً وحديثاً .

واني اليوم لمئات القارئين بالشواهد التاريخية على أن المسلمين الاولين لم يحرموا على أنفسهم مذهباً من المذاهب ، ولم يهملوا رأياً من الآراء ، ولم يهجرُوا أسلوباً من الأساليب بحجة دينية ، ولكنهم اتقوا بانفسهم أحراراً في عباب العلوم والفلسفات غير مقيدين ولا ممتأئين فبنوا لنا من ثمرات جهودهم صرحاً من المجد لا تعني على آثاره الدهور



قال العلامة « درابر » المدرس بجامعة نيويورك في كتابه  
« المنازعة بين العلم والدين » :

« لقد كان تفوق العرب في العلوم ناشئاً من الاسلوب الذي توخوه  
في مباحثهم ، وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونانيين الاوروبيين .  
فانهم تحققوا أن الاسلوب العقلي لا يؤدي الى التقدم ، وأن الامل  
في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها .  
ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الاسلوب التجريبي والدستور العملي .  
الي أن قال :

« وهذا الاسلوب هو الذي أوجب لهم هذا الترتي الباهر في الهندسة  
وحساب المثلثات . وهو أيضاً الذي أدام لاكتشاف علم الجبر ودعائم  
لاستعمال الارقام الهندية الخ »

« ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منظمة لاجل أن يتوصلوا  
الي تكوين المكتبات التي تكلمت عنها ، وقد قيل إن المأمون نقل  
الي بغداد مائة حمل بعير من الكتب ، وقد كان أحد شروط الصاح  
بينه وبين ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكتبات القسطنطينية التي  
كان فيها من الذخائر الثمينة الاخرى كتاب بطليموس على الرياضيات  
الساوية ، فأمر المأمون بترجمته الي العربية وأسماه المجسطى »

ثم قال عن مهمة المسلمين الاولين في ترجمة الكتب العلمية :  
« لقد كان يوجد في كل مكتبة كبيرة محل خاص للنسخ والترجمة ،  
وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك . فان هونيان الطبيب النسطوري  
كان له محل من هذا القبيل ببغداد سنة ( ٨٠٥ ) م . ترجم فيه كتباً



لارسطو و افلاطون و هيبوكرات و جالينوس الخ

الى أن قال :

« وكانت قيادة المدارس مودعة لذوى المدارك الواسعة ، فكانت امابيد النسطوريين أو اليهود ، لان المسلمين لم يكونوا يتجرون عن جنس العالم وديانته ، وما كانوا يزنون قدره الا بأعماله » الى أن قال :

« واننا لندهش حينما نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ، ما كنا نظنه من ثمرات العلم في هذا العصر . من ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباً حديثاً كان يدرس في مدارسهم ، وقد كانوا جروا به الى مكان أبعد مما وصلنا اليه ، وذلك بتطبيقه على المعدنيات أيضاً » انتهى

تقول أن من يتأمل فيما ذكرناه يرى أن المسلمين الاولين قد ألقوا بأنفسهم في باحات العلم مطلقين غير مقيدين ، فلم تكن هنالك سلطة دبنية تحاكم العلماء على الفتيل والقطمير ، وتحاول أن تجعل العقل والعلم تحت وصايتها فتقف حجر عثرة في سبيله .

وأنت ترى انهم أخذوا عن اليونان فيما أخذوه كل ما أثمرته قرآنهم غير متحرجين من شيء ، وفي الذى أخذوه أشياء ورد في ظاهر ألفاظ الكتاب الكريم ما يخالفها كمسألة كروية الارض ، فان فيه آيات نصت على انبساطها . وجرهم العلم نفسه الى القول بالنشوء والارتقاء ، وفي الكتاب نصوص صريحة تقول بالخلق المستقل ، فهل كانوا في هذا مستهينين بالدين ، وفي مقدمتهم الخلفاء ومن دونهم من العلماء العاملين ؟



لا لا ، ولكنهم كانوا في حركتهم هذه جارين على مذهب الدين نفسه ، فان الاسلام ، وقد أطلق العقل من عقاله وأعطاه كامل سلطانه ، كان يعلم انه سيهجم بأهله على مذاهب وآراء تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب ، فاحتاط العارفون بأسرار هذا الدين لهذا الامر ، فوضعوا له قاعدة كلية في كتبهم الاصولية وهي : انه اذا خالف حكم العقل ظاهر نص الكتاب أو السنة ، وجب التعويل على حكم العقل ، وتأويل ظاهر النص . لذلك لم يصطدم الدين بالعلم ، ولا بالمذاهب الفلسفية في العهد الذهبي للمسلمين ، فكان في هذه القاعدة مخرج للعلماء في الاخذ بالآراء ايا كانت ، وفي الجري بالعلم والفلسفة الى أقصى حدودها غير متحرجين ولا متأتمين .

هذه القاعدة الاصولية من أعظم ما أوجده الاسلام من القواعد المؤسسة لحرية العلم ، والموطدة لدولة العقل ، وهي في الوقت نفسه من أدعى القواعد الاغجاب بسمو هذا الدين ، ولتتعجب من سبقه العالم كله بنحو عشرة قرون لتقرير الدستور العلمى ، ولاطلاق حرية النظر والتفكير بغير اعتداد بشىء غير مصالحة العلم والفلسفة خالصين من كل وصاية ورقابة . ومن أعجب العجب أن المفسرين لا الكتاب جروا على سنة العلم نفسه ، فقرروا كروية الارض وسواها من المسائل التي تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب ، صائرين الى تأويلها لتوافق مذهب العلم ، مستفيدين من تلك القاعدة الاصولية العظيمة ، فكانوا بذلك مبهدين لا قوم السبل لمن يأتي بعدهم عند ما يستبحر العلم ويكشف للناس ما لا يخطر ببال .



فهل في الاديان المعروفة شيء من هذا النوع ولو شئنا لملاً نأجلدات  
من أخبار مكافحتها للعلم والعقل ، وترتيبها العقوبات القاسية على كل  
صغيرة وكبيرة منهما أكثر من عشرة قرون متوالية ؟  
ولكنك لو علمت أن هذا الدين شرع ليكون دين البشرية  
العام الخالد ، وأنه أنزل الي الناس في آخر الزمان حيث يبلغ العلم أبعد  
شأو ، وتمتد الفلسفة إلي أبعد مما يتصوره الخيال البعيد المدى ،  
وتكثر المسائل التي تخالف ظواهر الالفاظ الواردة في الكتاب ،  
لبطل تعجبك وأدركت أن العاقبة له حتما وأن كره ذلك الكارهون ،  
مصداقا لقوله تعالى : سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين  
لهم انه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد «  
أسلوب الاسلام في بناء الاخلاق ومذهبه

في اعطاء العقل حريته في التطور

يطلب الاوساط من الدين فيما يطلبونه ان يرشدهم الي طريق  
الآداب والاخلاق دون أن يحاول تحديدها، تاركا للعقل حرية التطور  
في الشعور بها ، وبلوغ الغاية التي تنتظر منها  
هذا نفسه هو أسلوب الاسلام ليس في الاخلاق فحسب ، ولكن  
في كل ماله مساس بالانسانية ، تفاديا من التحجر الذي يصيب النظم  
فيصبح شأنها شأن التماثيل تضاف الي أمثالها مما صنع في أزمان مختلفة ،  
وتمسى الحياة في واد وهي في واد آخر.

لذلك حرص الاسلام على أن لا يعطى ، على ما يجب أن يتطور بتطور  
الانسان من أموره الحيوية، الاصولا عامة لتبقى هذه الاصول حية



خالدة كالنواميس الطبيعية ، يحوم الانسان حولها مستسلما لفواعل التطور . وهذا أقصى ما يرجى من فرد أو جماعة حيال الاصول الخالدة . وهذا الموقف في الوقت نفسه يؤثر أعظم تأثير في أعمال الانسان وصراميه ، ويطبعها بطابع خاقي يزداد أثره ظهوراً على مر السنين . كل كائن في العالم يحمل من الروح العام نقحة يقوم بها مبناه ومعناه معا . والانسان يحمل أكبر قسط مما تحمله الكائنات من هذا الروح . وهو الذي يرفعه من حضيض الحيوانية ، ولا يني يدفعه الى التطور والى الاستقامة . وهذا القسط الروحاني الأكبر الدافع الى التطور ، والامتدادى بذويه الى أرقى المكنات ، هو الذي دعاه الكتاب الكريم بالامانة ، فقال تعالى : «إن اعرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا» انه كان ظلوما وجهولا لا لقبوله حمل الامانة ، ولكن لحيده عن الصراط السوى وهو يحمل هذه الامانة في سويداء قلبه . فالكلام تحضيب على مراعاة حقوق هذا السر الاقدس في صورة تبيكيت . وهذا أبلغ ما قرأه الناس في الحث على مراعاة كرامة الانسانية ، وعلى تجلية التبعة الادبية التي تتحملها البشرية . والتعبير بالامانة أجمل ما عرفوه من التنويه بالفضيلة التي لا يخلو قلب من قبسة آلهية منها . بعد تقرير هذا الاصل الاصيل الذي يجعل التكامل في الاخلاق والصفات والامول امانة في عنق الانسان ، وجه الاسلام عنايته لا يقاظ غريزة الرجولة في النفس الى أبعد حد ، ورفع رين الكشافات عن قبس الروح المودع في جبابته ، وقد اختار الاسلام لتجلية هذا الاصل



فيه موطناً من أدق مواطن النفس، حيث تتسلط العاطفة الدينية فتستولي على الشخصية وتسوقها وراء صغيريات الامور تحت عنوان الورع أو التنزه عن كل ما هو أرضي، مستوعبة جميع قواها في سبيلها، فتجعل الامة كلها كجماعة من المنتفعة انقطعوا للعبادة الجسدية، لا يبتغون عن أنفسهم ولا وطنهم شيئاً، فقال تعالى: « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ». ومعناها ليس العمل الصالح أن تتلفتموا شرقاً وغرباً تتحرون مكان القبلة، ولكن العمل الصالح هو أن تؤمنوا بالله وبالأخرة وبالملائكة وبالكتب الالهية وبجميع النبيين استكمالاً لحقوق أرواحكم، وأن تؤتوا المال، على شدة تعلقكم به، ذوى قرباكم واليتامى والمساكين والمسافرين والسائلين، وأن تعملوا على فك رقاب الاسرى بأداء ديانتهم قياماً بحقوق المجتمع وتوفية لروح التكافل فيه، وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة تطهيراً لأرواحكم وأموالكم، وأن توفوا بالعهود، وأن تصبروا في مواطن الشدة من فقر أو مرض أو حرب، من يفعلون هذا كله فهم الذين صدقوا في اسلامهم وأولئك هم المتقون بحق، لا الذين قصروا عملهم على تحري القبلة وبعض الصغريات التي لا تتصل بكبريات الامور الاجتماعية، مصروفين بها عن جميع صفات الروح



التي تحفظ وجودكم، وتصون أوطانكم، وتمكن لكم في الارض .  
فهذه الآية تكشف عن مذهب الاسلام في الاخلاق وتجعل  
الناظر فيه أن يلمس بيده العلل الاولية التي جعلت من المسلمين  
المتقدمين وحدة مندحجة لم تتجه إلي غاية الابلغتها ، ولم ترم الى  
غرض الا أصابته .

ولك بعد هذا أن تتلو الكتاب لترى أن كل ماورد فيه حثا  
على محامد الاخلاق ، مقصود به ايقاظ غريزة الرجولة لإماتتها كما فعل سواه .  
ألا تعجب من دين يسوى في التبعة بين الظلم والانظام ؟ فن  
ترك نفسه يظلم فهو كمن ظلم غيره على حد سواء ، ويحض على عدم  
قبول بغى الغير ، فقال في صفات المؤمنين : « والذين إذا أصابهم  
البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثاها ، فمن عفا وأصاح فأجره  
على الله انه لا يجب الظالمين » .

هنا نسرع فنسبه أن الاسلام لا يعتبر التجاوز عن الحق ممدوحا  
ان كان عن عجز وقصور ، فان تعبيره يقتضى القدرة على المجازاة  
اذ لا يعفو الا القادر ، فلا يقال ضربت الجبان فعفا عني ، ولكن يقال  
ضربت الجبان فعجز أو فاستخذي أو فنكص على عقبه الخ الخ .  
ولم يكتف الاسلام بهذا ولكن ذهب الي عدم قبول الاعتذار بالضعف ،  
فقال في قوم هالكين : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا  
فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا ألم تك أرض الله  
واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .  
هذا أغرب ما يروى عن دين في العالم ، لان المعهود أن الاديان



لا تعباً بالقوة الاجتماعية ، بل تؤدي الى الضعف فيها وتعترف به ، ولكن الاسلام لا يعتبر الضعف عذراً ، ويوجب على أهله أن يكونوا أقوياء في مجتمعهم ، وكل هذا منزل من أصله الاصيل في ايقاظ الرجولة في النفس البشرية .

ولكن بت هذه الروح في الامم كثيراً ما أصابها بروح التجبر والتعشمر ، فجاء الاسلام بمعدلاتها من التنويه بفضيلة العفو عند القدرة ، والمسامحة اذا كانت أبلغ في المجازاة ، فقال : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » . وقال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » . وقال : « ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار » . وقال : « ادفع بالتي هي أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصنعون » . وقال : « وأن تعفوا وتصفحوا فان ذلك من عزم الامور » .

وقد جعل الاسلام من معدلات روح الرجولة اقامة مبدئها نفسه ، وتحمل عبء الخلق الممتاز ، حتي في المواطن التي اعتادت الامم أن تهدر فيها الدماء غزيرة ، وتعد ذلك قربات عند الله ، وهي مواطن الانتصار للدين حيال من يريدون القضاء عليه وعلى أهله بحمية الجاهلية اعلاء لشأن الوثنية ، فطالب الاسلام أهله بالعدل وعدم الاعتداء حتي في هذه المواطن ، التي تغلي فيها الرؤوس وتطيش الاحلام ، فقال تعالي : « ولا يجرمنكم شنآن قوم ( أي ولا تحمليكم عداوتكم لقوم )



أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الأثم والعدوان، واتقوا الله ان الله شديد العقاب .  
وقال : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . وقال : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والتقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »

وزاد الاسلام على هذه المعدلات معدلا من روح البطولة والخلق العالى ، فحرم على ذويه في هذه المواطن الخطيرة الاخذ بالظنون، وكلفهم بالتبين والتثبت في هدر الدماء البشرية، وهو ما لم يسمع بمثله في تاريخ أمة من الامم ، وبخاصة في الحروب الدينية التي يقتل فيها الرجل أباه وأخاه ولا يبالي فقال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ( حتى لا تهايدروا دما خطأ )، ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا». هذا مع انه ثبت لهم أن الكافرين كثيرا ما كانوا يستفيدون من هذه الساحة فيظهرون الاستسلام والسيف يهوى الي أعناقهم، ومتى زال عنهم الخطر عادوا الي خصومتهم . وقد حدث أن أحد الصحابة لم يبال بقرن له نطق بالشهادتين والسيف يهوى الي عنقه، فقام بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك غضب منه غضباً شديداً، وتبرأ الى الله من عمله . فقال له الصحابي يا رسول الله هذه خديعة منه . فقال ولو كانت فاننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

فهذه الدرجة فوق الرجولة ، فهي بطولة صحيحة ، وخلق سام ليس وراءه مذهب . ولقد تنمو هذه الغريزة وتشتد حتى تستحيل الى وحشية، كما استحالت اليها لدى أمم كثيرة ، فاحتاط الاسلام لذلك



من كل ناحية ، وأنجح في ذلك فاشتهر أهله بحسن الجوار في كل تاريخهم الحافل بعظائم الامور .

ومن معدلات هذا الخلق روح التضامن الذي بثه الاسلام في أهله بقوة لم تعهد في نحلة من النحل ، فقرر أولاً أن الدين النصيحة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة » ، فقالوا لمن يارسول الله؟ قال : « لله ورسوله وعامة المسلمين وخاصتهم » ، ثم جعل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حقاً من حقوق كل فرد في المجتمع ، وواجباً عليه يسأل عنه . فقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . وقال في قوم من الهالكين : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أوليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيران » . فلكل مسلم بحكم هذه الآيات الحق في إبداء النصيحة للمجموع ، وهو حق دستوري لم يتقرر إلا في آخر القرن الثامن عشر ، فكان من ضمن حقوق الانسان التي أعلنتها الثورة الفرنسية .

وإنما تم للاسلام احياء غريزة الرجولة في نفوس أهله ارتفع بهم الي درجة البطولة ، وطالب أهله بمقتضياتها وهي : —

أولاً — قول الحق ولو على النفس والاقربين ، فقال تعالى : « يأأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أووالدين والاقربين » .

ثانياً — الترفع عن تطلب الثناء على الاحسان في كل عمل ، فقال



تعالى : ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . انما اطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً »

ثالثاً — ايشار المحتاج على النفس فقال تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، والخصاصة الفقر .

ثم ماذا أقول والقرآن بحر متعجز من الاخلاق النبيلة ، والشمائل الجليلة ، وبحسبي أن أكون قد وقفت للامام بأصولها الاولية التي تقوم عليها ، ذلك أولي بي في عجالة مثل هذه .

شريعة الاسلام هي القرآن وهي أصول

العدل المطلق

يرجو الاوساط من الدين أن لا يكون الاصولاً اولية ، تصح أن تكون دستوراً للمشرعين ، لأن تكون شريعة تفصيلية ان انطبقت على الحوادث في عهد شذت عنها في عهد آخر .

ونحن نقول إن الشريعة الاسلامية توفى بهذا المطلب على أكل الوجوه ، فهي محصورة في القرآن الكريم وهو مجمل في مواطن كثيرة منه ، لذلك اضطر الخلفاء الاولون أن يستأنسوا بما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانوا اذا لم يجدوا ضالتهم من السنة ، عملوا بأرائهم مستنيرين بالعرف والحقوق الطبيعية والاصول التشريعية المقررة في القرآن .

فلما امتد الملك الاسلامي ونبغ العلماء الكبار في عواصم الاسلام ، عاجلوا الامور التشريعية مقررين أن للشريعة الاسلامية أربعة أركان ، الكتاب والسنة والقياس واجماع المسلمين ، وهو ما يعبر عنه اليوم



بالاستفتاء العام .

ولا بد لنا قبل الكلام على الشريعة الاسلامية أن نلفت القارىء الى أمور هامة تستوعب منا مقالاً بمرمته، وكلها من أكبر وأجل ما يؤثر في تاريخ شريعة، وقد أصبحت بما فتح على الناس من أسرار التشريع من المعجزات الخالدة لهذا الدين، والسيرة النبيلة لرجاله الاولين .  
 ( أولها ) إن التشريع في الاسلام لم يسند الى طائفة خاصة ، ولا حصر في طبقة معينة ، ولا جعل من حظ العرب وخدمهم ، ولكنه جعل حقاً شائعاً للكافة يتناوله من شاء من المسلمين حتي المماليك الاجانب وأبنائهم ممن كان يطلق عليهم العرب كلمة الموالي ، ثم ترك للرأى العام الحكم في الاخذ بما يقال أو أهمله . لذلك اتفق أن كان جمهرة أئمة الاقاليم وزعمائها في الدين من هؤلاء الذين كانوا أرقاءً اجانباً أو ولدوا من آباء كانوا أرقاءً اجانب . قال العلامة السخاوي في شرح ألفية الحديث للقراني : إن هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي قال للزهري أمام الحديث : « من يسود أهل مكة . قال الزهري عطاء . قال هشام بم سادهم ؟ قال الزهري سادهم بالديانة والرواية . قال هشام نعم من كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأل الخليفة عن اليمن ؟ فقال الزهري إمامها طاووس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ( ولايات الدولة الاسلامية ) ، فأخذ الزهري يعده له سادات هذه البلاد ، وكلما سمي له رجلاً كان هشام يسأله هل هو عربي أم مولى ؟ فكان الزهري يقول مولى ، الي أن أتى على ذكر النخعي فقال انه عربي . فقال هشام الآن فرجت عني ، والله ليسودن الموالي العرب ،



ويخطب لهم على المنابر .

( ثانيها ) : انه لم يوضع للتشريع أسلوب مقرر لا يجوز تعديه ، فترك لكل ناظر الخيار في انتخاب أسلوبه ، فلذلك تخالفت أساليبهم الي حد بعيد ، وأشدها تكون عليه تخالفاً بين أصحاب الرأي والقياس ، وبين أصحاب الحديث . فالاولون وعلى رأسهم أبو حنيفة النعمان ( توفي سنة ١٥٠ هـ ) كانوا يرون أن الرأي والقياس الصحيح أولى بالاتباع من الاحاديث التي رواها آحاد ، ولم يصح عندهم من الاحاديث التي رواها جماعة ، أي المتواترة التي لا عذر لاحد في الشك فيها ، الا بضعة عشر حديثاً . والآخرون أخذوا بأحاديث الآحاد ان قوى اسنادها وثبتت بغلبة الظن صحتها .

( ثالثها ) : انه لم يخص التشريع بزمان دون زمان ، فقد كان للقرن الاول أئمة وللثاني أئمة يقلدهم الناس يبلغ عددهم السبعين أو يزيدون ، فاذا لم يبق لهم أتباع الي اليوم فلأن المسلمين وجدوا في مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل غنى عن بقية المذاهب فاتبعوها وأهملوا ماعداها .

ولكن سلسلة الامامة في الدين لم تنقطع ، لنص العلماء على رجال من أهل القرن الرابع والخامس وما بعده بأنهم وصلوا الي درجة الاجتهاد ، ولا يزال الباب مفتوحا الي يومنا هذا ، ولن يزال مفتوحا على مصراعيه حتي تقوم الساعة .

( رابعها ) : أن أحداً لم يحجر على أحد حرته في اتباع أي المذاهب الفقهية شاء ، بل ولم تحجر على أحد حرته في اتباع مذاهب المعتزلة



والخوارج والفرق التي اعتبرت مبتدعة ، فقد كان لهم ممثلون في جميع عواصم الاسلام ، وكان الكافة يجتمعون في المساجد فيتناظرون ثم يرجع كل منهم الى داره آمناً في سر به لا يزعج طمأنينته أحد .

( خامسها ) : اجماع المسلمين على أن الاجتهاد في تنوير أسرار الشريعة واجب على الحاصلين على مؤهلاتها ، ولذلك لم يكرهوا قط أن تتعدد المذاهب ، وهم في ذلك كانوا يصدرون عن طريقة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه فقد قال : للمجتهد أجران إن أصاب وأجر إن أخطأ .

( سادسها ) : كان المسلمون لا يروعونهم الخلاف بين المجتهدين مهما كان بعيد المدى ، بل كانوا يقابلون هذه الخلافات بارتياح عظيم ، وكانوا يكبرونها الي حد أن جعلوها علماً خاصاً سموه علم الخلاف ، فكانوا يتدارسونه كما يتدارسون أصول الفقه لتحصيل منة السريان في سرائر المسائل المعقدة . وسرى الترحيب بهذا الخلاف الي العامة فقالوا اختلافهم رحمة

هذه الامور الستة التي حصرناها هنا ونحن بسبيل الكلام عن الشرع الاسلامي لا يصح أن ندعها من غير تعليق عليها ، فانها أعجب ما يروى عن شريعة دينية ، وتبين عن أغراض سامية ، ومرام بعيدة ، تضع هذا الدين في مستوى بعيد عن العوامل التي تلحق بالشرائع فتصيبها بالوقوف والتحجر ، وتوجد له من المناعة وقوة الحياة ما يتقى بهما كل ما يخطر بالبال من دواعي الانحلال ، فيضمن لنفسه الخلود والتفوق في وسط كل تطور من تطورات العقل والعلم معا ، فاليك من قصد الاسلام بعدم حصره حق التشريع في طائفة خاصة أو جنس



معين ، وبفتحه بابه في وجوه الكافة حتي الارقاء ومن في حكمهم ، أن يجعله عالمياً عاماً، لا طائفيًا خاصاً، ولا قومياً محدوداً ، وغرضه من ذلك أن يتابع التشريع حياة الامم ويكابد معها كل التطورات التي تدخل فيها، حماية له من الوقوف عند حد محدود ، ومن القصور عن الامام بحاجات البشر كافة، باعتبار انه دين عام خالد ، وكل ما هو عالمي يعيش بحياة العالم ، ويتبادل وإياه التعاون على قطع مفاوز الحياة ، ويدخل معه في جميع التطورات، ويخرج منها أقوى مما كان وجوداً ، وأرسخ أصولاً ، وأشمل لحاجات الآخذين به والمعوّلين عليه . ولكنه لو أسند الى طائفة خاصة أو طبقة معينة ، أو جنس دون جنس ، لا صطبغ بصبغة قومية فينطبق على قوم دون آخرين ، ويخرج مع الزمن عن أن يكون شرعاً عالمياً ، فيقف عند حد، ويزداد التباين بينه وبين الامم، فلا تجد فيه حاجاتها ولا ثقافتها ولا روحها فتدعه وشأنه متلمسة من الشرائع ما يكون أولى بها منه .

وقد ترك الاسلام لشعوبه كل شيء من أول تعيين خليفة له، الي تحديد شكل الحكومة، الي ترتيب السلطات العامة، الخ ليكون كل ذلك للشعوب الآخذة به، وما كان هذه صفته عاش معاشرت الشعوب ، وتطور معها ما تطورت ، وليس بعد هذا ضمان حياة شريعة عالمية في الارض .

ورمى الاسلام بعدم تحديد أسلوب مقرر للناظرين في شريعته ، عدم حصر دائرة البحث في أمر كلما تعددت أمامه وجهات النظر كان ذلك أعود عليه بالأصابة، وأرجى لبلوغ الغاية .



وهذا في الوقت نفسه أجدر بدين يعترف بسلطان العقل، ويشيد بدولة العلم، ويحترم لكل ناظر وجهة نظره في الحدود التي قررها أولو البصر، ويقررونها على مر الاجيال والعصور.

والمتمامل في مدى الخلاف بين أهل الرأي والقياس، وبين أهل الحديث يرى البون شاسعاً، ومع هذا فقد رضى المسلمون هذا الخلاف الجوهري بين الفريقين وخصوصاً صاحب المذهب الاول وهو فارسي الجنس وقليل الحظ من العربية، بلقب الامام الاعظم واتبعه أكثر المسلمين.

والحجير للعقل أن المسلمين أساغوا مذهب أبي حنيفة هذا في القرن الثاني للهجرة، ودعى هذا الامام لتولي رئاسة القضاء في الدولة فأبى فتولاها صاحبه أبو يوسف، والمملكة الاسلامية في أوج عظمتها. فلما نبغ أهل الحديث في القرن الثالث بظهور مالك والشافعي وابن حنبل احترموا رأي أبي حنيفة ولم يرموه بما يرمى به المخالفون خصومهم، بل كان بعضهم يصلي خلف بعض من غير اعتداد باختلافهم في وجهات النظر الي هذا الحد البعيد.

وهذا الادب حصلوه من الاسلام نفسه، فانه خول العقل كامل سلطانه، ولم يشترط للنظر وجهة معينة، ولا حده حداً مقررأ، بل ترك العقول حرة في توثباتها لبلوغ الحقيقة المجردة. وهذا الادب إن شوهد بين أهل الفلسفة والعلم، وكان من مقوماتهما وهو الذي ضمن لهما الاحترام العام، والحظوة بالخلود ودوام الارتقاء، فلم يشاهد قط بين أهلي الاديان، فقد حصروا النظر في أمور الدين في طائفة خاصة،



ووضعوا له تقاليد لا يمكن تعديها بوجه من الوجوه ، لذلك انفصلوا عن جثمان الامة ، فحيل اليهم أن هذا الانفصال تميز ففرحوا به وغفلوا عن أن هذا التميز يضيع الدين ويضيعهم معه .

وأراد الاسلام من عدم خص التشريع بزمان دون زمان ، أن يستفيد من الرقي الذي ينال العقول فيكون حظه منه أوفر حظ ، ويندمج في روح الامم فتتوحد ميولها الدينية وميولها العلمية ، فلا يكون بينهما تناقض من أى نوع كان ، وتدوم الصلة بين الناس وشريعتهم فتدخل معهم في جميع التطورات المقدره لهم ، وتتلاءم وأحوالهم الاجتماعية التي يدخلون فيها تحت ضغط الحوادث وفواعل الانقلابات . وقد عاش المسلمون قروناً على هذا النحو حتى انهم اضطروا الي تأويل كل نص خالف ظاهره حكم العقل والعلم ، فقالوا بكروية الارض وبكل ما وصل اليه علم الفلك وغيره ، مع ان في الكتاب آيات يدل ظاهرها على تقيض ما قالوه ، فأولوه جرياً على الاصل الاسلامي نفسه .

وأهم المسلمون عدم الحجر على حرية أحد في اتباع أى المذاهب شاء ، لقيام دينهم على حرية البحث ، وتحريم التقليد واتمائه تبعة كل انسان على عاتقه ، وتقريره أن نفساً لا تغنى عن نفس شيئاً ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لابنته : «اعملى يافاطمة فاني لا أغنى عنك من الله شيئاً» . فكل مسلم مسعول عن عقائده ومعاملاته ، ومطالب بالبرهان عاينها باعتبار انه كائن رشيد منح كل الصفات التي تجعله رشيداً ، وقد أوتي عقلاً يميز به بين الحق والباطل .



وقد رحب المسلمون بتعدد المذاهب وشجعوا عليه، لثقتهم بأن ما أبهم على واحد في أمر من الامور قد ينكشف لآخر، وما استعصى على ناظر من الناظرين قد ينقاد لغيره، فلا يجرمون من مزايا العقول في تصيد الحقائق، وهي من السعة بحيث لو تجرد الناس كاهم للبحث عنها لما كانوا مغالين في ذلك. بل الاسلام في تقريره عدم قبول ايمان المقلد يشجع الكافة على الحصول على هذه الدرجة، ولا يسد على أحد مجال الجهاد في هذه الناحية، ولهذا السبب عينه لم يخص الاسلام الاجتهاد بجنس واحد ولكن فتح مجاله حتى أمام الارقاء ومن في حكمهم، وهذا ما لم يسجله دين لاهله من سعة الصدر الي اليوم.

ومما يجب أن يدون لهذا الدين من المفاخر الخالدة في هذا الباب، تقريره أن المجتهد يؤجر وان أخطأ. فهذا الاصل الاسلامي يعتبر من أفعال المنشطات لاعمال العقول وتبارى الرويات، ويدل على أن مقصد هذا الدين الوصول الى الحقائق العالية لا الانحصار في دوائر ضيقة والجود فيها، فيجىء ناموس الترقى فيدفعهم للخروج منها، فيوقر في نفوسهم انهم خرجوا على الدين، ويكون التنازع في صدورهم مشاراً لشبهات وشكوك لا تقف بهم عند حد، ثم يؤول أمرهم الي نبذ الدين ظهرياً.

هذه الامور الهامة كان يجب علينا أن نقدمها بين يدي كلامنا على أصول الشريعة، لان عايتها يتوقف العلم بسمو مذهب الاسلام في هذا الامر الجمال الذي له الاثر الحتم في حفظ كيان الامم، وفي وحدة وجودها وتدرجها في معارج الكمال الي غير حد.



في الفصل التالي نأتي على ما وعدنا به من الاصول الخالدة لهذه الشريعة  
السمحة والله المستعان .

### نظرة على أصول الشريعة الإسلامية

لم تر الارض شريعة أرسخ قواعد في العدل ، ولا أبعد مدى  
في المساواة واحترام الحقوق ، ولا أجمع لأصول الحياة الاجتماعية ،  
وأشمل لعناصر التطورات الانسانية ، من الشريعة الإسلامية . ذلك  
لأنها قامت على مراعاة الحقوق الطبيعية ، وراعت في وضعها المصلحة  
المجتمع الإسلامي وحده ، ولكن مصلحة المجتمع البشري كله ، بل  
والمجموع العالمي عامة ، ولاحظت في بناء جماعتها الا يكون أمرهم  
قائمًا على التضخم بامتصاص دماء المقهورين ، ولكن على بذل النفس  
والنفيس في سبيل إقامة المثل الاعلى .

هذا كلام يحتاج لبيان فإليك :

أدرك الانسان في العصور الحديثة أن هنالك عدلاً مطلقاً ، وحقوقاً  
طبيعية لكل فرد وكل جماعة ، فقصارى الشرائع التي تعتبر اليوم  
عادلة أن تقرب بالانسان الى هذا العدل وهذه الحقوق لأن تواتيه  
بها كاملة . وفي اليوم الذي تستطيع أن تبلغ به الى هذه الدرجة من  
الكمال تكون قد وصلت الى المثل الاعلى الذي كانت تتطلبه ولا تبلغه .  
ولكن الإسلام انقرد عن جميع الشرائع في تقرير العدل المطلق والحقوق  
الطبيعية للأفراد والجماعات معاً .

نعم قد أقر الإسلام الاسترقاق والحرب والفتوحات وضرب الجزى  
( جمع جزية ) على المقهورين ، وكل عالم بالاجتماع يرى له في ذلك واسع



العذر ، فان كل هذه الامور كانت من عوامل الحياة الاجتماعية ، ومن فواعل التطورات الانسانية ، فكيف كان يتسنى لدين يريد أن يكون عمليا لا خياليا أن يبطل الاسترقاق ولم يحن وقت ابطاله الا في القرن التاسع عشر ، أو يمنع الحرب ولا تزال الحرب الي اليوم الوسيلة الوحيدة لاثبات الحقوق ؟ وكيف يحرم متبعيه من أقوى بواعث العمران ، بل مما به وجودهم احياء بين الجماعات ؟ ألا يرون أن الاديان التي جاءت بالسلام والاستسلام قد اضطر اتباعها لمخالفتها ، وانقلبوا أكثر الامم اشتغالا بالحرب والفتح والاستعمار ؟

هذا صحيح ، الا أن الاسلام أحاط كل هذه الامور بما يخفف من ويلاتها ، ويفعل في ابطالها متى اقتضت التطورات البشرية ابطالها ، وللقارىء أن يراجع ما كتبناه هنا في فصل الاسترقاق والحرب والاستعمار لدى المسلمين في قسم الرد على الشبهات .

ونكرر هنا قولنا أن الاسلام أمر في الحرب بعدم الاسراف في اراقة الدماء ، وعدم الاجهاز على جريح ، وعدم مطاردة المهزوم ، وبقبول أو هي المحاولات وأكذبها للخلاص من القتل ، كمن يلتقي السلم والسيف يهوى الي عنقه .

وراعى الاسلام في ضرب الجزى مصلحة المقهورين ، حتى أن أمما دخلت تحت حماية المسلمين طواعية هربا من الضرائب الفادحة التي كانت تكلفهم بها حكوماتهم ، ولتتمتع بنعمة العدالة الاسلامية . وهذا أغرب ما سمع عن الفاتحين القدماء والمحدثين ، (راجع كتاب المنازعة بين العلم والدين للعلامة درابر المدرس بجامعة نيويورك) .



أما فيما عدا هذه الأمور التي قضى بها الوجود الاجتماعي العام، فإن الإسلام قرر لشريعته العدل المطلق والمساواة التي ليس وراءها مذهب، بصرف النظر عن الألوان والاجناس والأديان والمراتب الاجتماعية، فإنه لم يعتد في سبيل ذلك لا بطبقات ولا بطوائف ولا بأى امتياز متنزل من أى اعتبار كان.

شريعة الإسلام في القرآن، وهى فى الجملة أصول أولية من العدل والمساواة على إطلاقهما، وقد تركت لاولى البصر تقدير الحقوق وتحديد التبعات، وتقرير العقوبات، (الافى مواطن معدودة سنأتى عليها). وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم فى حوادث قضاء حفظته السنة الصحيحة، وجاء الأئمة بعده فقضوا بأمور أخرى لم تكن قد وقعت على عهده صلى الله عليه وسلم، وقد راعى جميعهم فيما قضوا به العدل المطلق والمساواة الكاملة، فجاءت مذاهبهم أعدل ما عرفه البشر الى اليوم. وقد أطلق الشارع حق النظر فى الشريعة لكل انسان حتى من لا يقبل منهم النظر فى أمثال هذه الأمور لدى الامم كافة: كالارقاء ومن فى حكمهم. فتكلم كل قادر على الفهم والاستنباط فى هذه الشؤون واعتبر كلامه اما اجتهادا مطلقا منه، أو اجتهادا فى مذهب من المذاهب المقررة، حتى لا تستطيع أن تأتى بقول حديث من أقوال المشترعين المعاصرين لنا لا يكون قد سبقهم اليه امام من الأئمة أو عالم من علماء المسلمين. فاذا أريد أن يعمل من هذه الاقوال قانون عام أمكن عمله على حال أكمل من حال كل قانون فى الارض، ويكون قابلا للتطور الى ما لاحدله، لان الإسلام لم يضع للاجتهاد حدا، ولم



يعين له أهلا، ولم يحدد له زمنا، ولكنه ترك بابه مفتوحا ليسع جميع التطورات العقلية التي تدخل فيها العقول في كل زمان ومكان، وحتى لا يكون للمسلمين عذر في تركه والتعويل على الشرائع الأخرى. هذا من ناحية الأصول الأولية، التي أقيم عليها صرح الشريعة الإسلامية، فهل راعى المشترعون الإسلاميون هذه الأصول، وهل أساغها الناس في تلك العصور وتمذوها على أكمل الوجوه؟ نحن مضطرون لتقديم هذه الأسئلة، لأن تنفيذ مقتضيات العدل المطلق والمساواة الكاملة، لم تنضج له إلى اليوم أرقى أمم الأرض من اللاتي نصبن أنفسهن أوصياء على العالمين، فهل تنفذه أمة في أول عهدها بالاجتماع، وتقوم بحقه في الحدود التي نعرفها نحن لها اليوم؟ نعم نفذته الأمة الإسلامية وقامت بحقه طوال عهد قوتها واليك طرفا من سيرتها في ذلك:

شكا يهودى عليا بن أبى طالب إلى عمر في خلافته، وأنت خير بمن هو على، فلما مثلا بين يدي أمير المؤمنين نظر إلى على وقال له: اجاس يا أبا الحسن. فظهرت آثار من الغضب على أسارير وجهه على. فقال له عمر: أكرهت يا على أن يكون خصمك يهوديا وأن تمثل وإياه أمام القضاء؟ فقال على: لا، ولكنى غضبت لآنك لم تسوي بينى وبينه بأن كنيته فقلت يا أبا الحسن (والتكنية تعظيم).

أنظر إلى مبلغ فهم المسلمين الأوائل لمعنى العدل حتى عد على بن أبى طالب تكنيته رفعا له على خصمه، وهذا في نظر ضد المساواة التي أمر بها الإسلام. وانظر فوق هذا إلى أنه غضب لأن غيره عدا



على العدل ولو في تمييزه هو نفسه عن غيره ، وهذا غاية ما يعرف في تضامن أمة للوصول الي المثل الاعلى في كل شأن .

وحدث أن ولدا لعمر بن العاص القائد المشهور فاتح مصر وواليها على عهد عمر بن الخطاب ، ضرب رجلا ظلما فأقسم المجنى عليه ليشكلونه لأمير المؤمنين ، فبينما كان الخليفة مع خاصته وعمر بن العاص وابنه معهم في المسجد في موسم الحج ، اذا بهذا الرجل يقوم فيقول : يا أمير المؤمنين أن هذا ، وأشار الي بن عمرو ، ضربني وقال اذهب فأنا ابن الاكرمين . فنظر عمر الي عمرو وقال له : متي امتلكتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ثم التفت الي الشاكي وناولته درته وقال له اضرب بها ابن الاكرمين كما ضربك ، ففعل .

تأمل في هذا العدل الذي يضمن حق رجل من السوق ضد أمير من أمراء العرب ، وابن فاتح أعظم بلاد العالم غني ، وأبعدها في الممالك شهرة .

وتقاول أبو ذر الغفاري وعبد زنجي في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاحتد عليه وقال له : يا ابن السوداء فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « طف الصاع طف الصاع ( مرتين تهويل للامر ) ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » . فوضع عند ذلك أبو ذر خده على الارض وقال للاسود : قم فطأ على خدي ( تكفيراً عن ذنبه ) .

اقراء هذا واذكر أن العالم كافة يعتبرون السود الي اليوم في مستوى القردة ، وأشد ما يكونون عليه هو اننا في بلاد المتمدين أنفسهم .



وعلى ذكر العبيد أقول أتعلم أن في الارض أمة تقتل الحر بالعبد ؟  
لا ، ولا في هذا القرن حيث بلغ الشعور بالمساواة حداً بعيداً .  
ولكن الاسلام قرر في شريعته أن يقتل الحر بالعبد اذا قتله عمداً .  
فأنا اذا حشرت للقارىء كل آيات البيان لاستنزل اعجابه بهذا السمو  
فقد أراني مقصراً حيال هذا الامر الخطير .

ثم أتعلم ان أهل دين يقتلون أخاً مؤمناً منهم بكافر ؟  
لا والله الا في شريعة الاسلام

ان أصدق ما يظهر به الانسان من مبلغ احترامه للعدل والمساواة  
وقت احتدام غضبه ، وتبيخ دمه ، دفاعاً عن حياته وذوياً عن كرامته ،  
وأصدق ما تظهر به الامة من ذلك وقت الحرب والدفاع عن الحوزة ،  
وبخاصة ضد خصوم من أهل الجاهلية الجهلاء لا يعرفون للرحمة معنى ،  
ولا يقيمون للانسانية وزناً . فمثل شريعة الاسلام وتأمل الي أي حد  
تأمر أهلها باتباع سنة العدل حتي في هذه المواطن التي تغلي فيها الدماء  
بالسخائم ، وتطيش فيها الاحلام وسط صايل الصوارم فقال تعالى :  
« ولا يجرمكم شنآن قوم ( أي ولا تحمانكم عداوتكم لهم ) أن  
صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » وقال : « ولا يجرمكم  
شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله  
ان الله خبير بما تعملون » وقال : وقاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا  
ان الله لا يحب المعتدين »

وفي الكتاب الكريم من أمثال هذه الآيات العدد الوفير . وقد  
سبق ان ذكرنا في فصل مضي ان بعض أصحاب رسول الله صلى الله



عليه وسلم قتل رجلا في الحرب ألقى اليه السلم ، فلما بلغه ذلك غضب غضباً شديداً وقال اللهم انى أبرأ اليك مما فعل فلان . فقال له صاحبه ان هذه منه خدعة يارسول الله . فقال ولو كانت كذلك فانا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

فالأخذ بالظاهر هذا مبدأ أول ما جعله أصلا من أصول الشريعة ، وأساساً من أسس المعاملات ، هو الاسلام . ولقد ساكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من المنافقين التحفوا الاسلام واستبطنوا الكفر ، فكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ، وينقلون الي الكافرين أخبارهم وحركات جنودهم ، ويخرجون معهم للقتال فينهزمون ليجروهم معهم فيتعقبهم العدو وينمك بهم . فاحترم النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر ايمانهم ، وصبر هو وأصحابه على أذاهم ، وهم قادرون على إبادةهم ، وهذا ما يظهر أثره في التشريع الدستوري ألافى القرن التاسع عشر حيث استقرت الدساتير واحترمت المذاهب السياسية المختلفة ، وتركت الحرية لكل قبيل يعمل في دائرة القانون العام ، ومنع التجري عن سرائر الناس للإيقاع بهم .

اننا نكتب هذا ونحن نتفزز طربا من هذه الآيات الباهرة ، ونتساءل هل يمكن أن يكون لهذه الشريعة التي تعتبر المثل الاعلى للعدل من طريق غير الوحي ؟ وهل يستطيع رجل نشأ في جزيرة العرب ، بيئة الفخر بالآباء ، واحتقار الضعفاء ، والعدوان على الحقوق ، وعبادة القوة والاقوياء ، أن يأتي بمثل هذا العدل في ذلك العهد القديم عنا ؟



وإذا كان أفلاطون وأرسطو أميرا للفلسفة قررا وقرر من جاء بعدهم  
حرمان أهل الحرف والصنائع وأصحاب المهن والارقاء من الحقوق  
المدنية كافة أفلا يعتبر الاعتداد بهم الى هذا الحد سمو أليس وراءه مذهب؟  
يقول قائل انك تقول ان شريعة الاسلام اصول عامة تصلح لكل  
زمان ومكان، ولكننا نرى القرآن قد نص على عقوبات مختلفة على الجرائم  
معينة كالزنا والسرقه وشرب الخمر والقذف والفساد في الارض، فكيف  
توفقون بين قولكم وهذه النصوص؟

### الحدود المقررة على بعض الجرائم في القرآن

قانا في نهاية الفصل السابق أن في الكتاب الكريم جرائم معينة  
محددا لها عقوبات مقررة، كالزنى والقذف والسكر والسرقه والفساد  
في الارض، فالكتاب والسنة الصحيحة يقرران على مرتكب الجريمة  
الاولي ان كان محصنا عقوبة الرجم، وعلى مقترف الثانية مئة جلدة،  
وعلى مجرم الثالثة ثمانين جلدة، وعلى جاني الرابعة قطع اليد، وعلى  
فاعل الخامسة أن تقطع يده ورجله من خلاف أو ينفى من الارض، فهذه  
العقوبات تصادف اليوم اعتراضات من جانب المشتريين، وقد أباحوا هم  
الزنى والسكر وقرروا على القذف والسرقه والفساد في الارض عقوبات  
تناسب خطرهما. ويفوت هؤلاء النقدة أمر خطير وهو أن الاسلام  
دين اصلاح اجتماعي وله برنامج معين فيه، وهو يرمى الى تأييد  
مجتمع خال من الشرور ما أمكن، ويسود فيه التكافل  
في الحياة، والترافد حيال صعوباتها، الي أقصى حد تطيقه  
الفطرة البشرية.



وفي الارض مذاهب اصلاحية تكاد لا تحصى ، فما الاديان  
الموجودة ، وما جمهورية أفلاطون ، ولا كتاب السياسة لارسطو ،  
وما وضعه أبيقور وذيونون وغيرهم من الاقدمين ، وما نشره كارل ماركس  
ومن أتى بعده الي لينين . . الخ الخ . إلا مذاهب اجتماعية قصد ذوقها  
احداث اصلاح عمراني على موجبها . فمنها ما طبقت على بعض الشعوب  
وعاشت دهرًا ثم اضمحلت وزالت ، ومنها ما حبطت تاركة وراءها  
دخانا كشيئا وحما . وبعضها لم يطبق الي اليوم على أمة من الامم ويجهاد  
للحصول على الفوز بأصوات الناخبين ، كمنذهب حزب العمال في إنجلترا ،  
والهتيرية في ألمانيا ، وغيرهما من المذاهب الاشتراكية حتي الفوضوية . فاذا  
كان الشيء تعرف قيمته من أثره فانظر الي كل ما ذكرته لك من المذاهب  
الاجتماعية وتأمل هل من بينها ما يعادل منذهب الاسلام في الاصلاح  
الاجتماعي ، أو يقرب منه في سمو أغراضه ، وبعد غاياته ، واستقامة  
مسالكه ، وصحة أصوله ، وفي تأديته للجماعات التي أخذت به الي زعامة  
العالم في زمن لا يكاد يكفي لتطور فرد فما ظنك بأمة ، وفي تعديته  
ما حصله من النور العقلي والعلمي ، والتقدم الصناعي والنفسي ، الي الامم  
كافة ، حتى كان سبباً في حفظ التراث العقلي العالمي من التلاشي ، بل  
كان داعياً لانعاش أوربا بعد أن قضت في خدرها وجودها الف  
سنة ، وأوجب لذويه سلطان الارض ، فقاموا به على سنن من العدل  
لاتزال تترطب بذكرها الالسنة ، وتتعطر بأريجها الاندية ، وتتخذ  
دليلاً محسوساً على أن الانسان يستطيع أن يوفق بين الدين الذي  
ليس وراء غاياته القصوى منذهب ، وبين المدنية التي ليس عن فوائدها



مهرب ، وأن يؤاخي بين الساطان الذي ليس فوقه مصعد ، وبين العدل الذي ليس بعده مطمح ؟

فالإسلام كما ترى جاء بمذهب في الإصلاح الاجتماعي ونجح في تطبيقه ، وكان من أثره ما رأيت مما لا تزال الأمم الآخذة به تعمل فيه ، جهلاً منها به ، معاول الهدم والتحطيم ، وتكاد لا تسقط منه ركناً ، وستعود إليه بعد أن تصح من داء هذه الفتنة ، أو تصحو من خدر الجهل الذي هي فيه ، معاصاة له ، وخروجاً على أصوله .

فهل تعدى هذا الدين فيما قرره من استنطاق الجرائم التي ذكرناها ، وترتيبه عليها العقوبات الرادعة ، الحق الطبيعي الذي للأفراد والجماعات ؟ وهل قصر في اتخاذ الاحتياطات لها من جميع الأنواع ؟

أى مشرع أو فيلسوف في الأرض لا يرى في الزنى جريمة من أبشع الجرائم ، لعدوانها على الشرف والكرامة والأخلاق أكبر عدوان ، فالإسلام قرر أن يضرب آتية إن لم يكن محصناً مئة جلدة ، وأن يرحم إن كان من أهل الإحصان .

هذه عقوبة من الشدة بمكان بعيد ، ولكن أرأيت كيف أحاطها الشرع الإسلامي بما يجعلها شكلية ردعية أكثر منها عقوبة حقيقية ؟ فقد تطلب لإثبات الزنى أربعة شهود عدول يقررون أنهم رأوا الفعل رأى العين في تفصيل لا نستطيع الخوض فيه ، مما يجعل إثباته قريباً من المستحيل ، وزاد على هذا بأن أحداً لو اتهم اثنين بوقوع هذه الجريمة منهما ، طالبتة الحكومة بإحضار أربعة شهود عدول ، فإن عجز عن إحضارهم عد قاذفاً وضرب مئة جلدة .



وقد أوصى الشارع بقبول أو هي المعاذير في دفع هذه التهمة . فقد حدث أن رجلا جاء الي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله انى زنت . فوقع اعترافه وقعا شديداً من النبي ، فأخذ يلقنه الشبهات التى تدفع عنه الحد ، فيقول له لعلك قبلت ، لعلك عانقت ، لعلك فاخذت ، فلم يزد الرجل الا إصراراً ، فلم يسع النبي صلى الله عليه وسلم الا أن يأمر باقامة الحد عليه وهو كاره .

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « ادروا الحدود بالشبهات » ، و « ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً »

وقد سار اتباعه من بعده على سنته ، فحدث يوماً أن رأى عمر بن الخطاب فى أيام خلافته رجلا وامرأة على فاحشة ، فلم يستطع ، على شدته وحرصه على اقامة حدود الله ، أن يبت فى هذا الامر بنفسه ، فجمع الناس وقام فيهم خطيباً وقال : ما قولكم أيها الناس لو رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة ؟ فقال على بن أبى طالب وأجابه بقوله : يأتى أمير المؤمنين بأربعة شهداء أو يجلد حد القاذف مئة جلدة . فسكت عمر ولم يعمل شيئاً .

الى هذا الحد بلغ نظر المسلمين الى هذه العقوبة ، فهى شكلية ردعية كما قلنا أكثر مما هى حقيقية .

وأما قطع اليد على السرقة ، فإن الاصلاح الاجتماعى الذى أوجده النبي صلى الله عليه وسلم كان من أصوله ان يقوم المسلمون على مبدأ تعاونى محكم البناء ، ليس فى احدى نواحيه ضعف . وقد سلك لذلك مسلكين ، ( أحدهما ) أن يؤخذ من رؤوس الاموال نحو اثنين ونصف



في الأمة للفقراء ومن في حكمهم ، وللأعمال العامة التي تعود عليهم بالخير واليسر ، فكان في بيت المال رصيد خاص بذوى الحاجة، ومن تدفع بهم الضرورة الى الحدود القصوى، وكانت الحكومة مسئولة عن وصول الحاجة ببعض الناس الى هذه الحدود. و( ثانيهما ) كان على كل فرد من افراد المسلمين واجب حتم، وهو العيش مع الجيران على حالة تكافل وتعاقد، بحيث يرفد غنيهم فقيرهم، والا كان عليه وزر المقصر المستأثر . فأكثر النبي صلى الله عليه وسلم من الايحاء بالجار حتى قال : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » . وقد جرى المسلمون على هذا الاصل حتي وصلوا الى حدود يضرب بها الامثال في التعاون بين الفقراء والاعنياء غصت بها تواريخهم . فقد روى حجة الاسلام النزالي أن رجلا كان عند عبدالله بن عباس و غلام له يذبح شاة . فقال بن عباس يا غلام لاتنس جارنا اليهودي ، ثم عاد فكررها ثانية وثالثة . فقال له الرجل كم تقول ذلك يا بن عباس ؟ فقال والله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مازال يوصينا بالجار حتي ظننا انه سيورثه .

أنظر الى هذا الاثر من ناحية انه تشديدي في مراعاة حقوق الجوار، ولاتنس أن تنظر اليه من ناحية دلالته على مبلغ تسامح المسلمين مع الاجانب عن ملتهم ، حتى انهم لم يفرقوا بين الناس كافة في حقوق الجوار .

ففي نظام اجتماعي تعاوني من هذا الطراز حيث، يسود التكافل والترافد ، ويمكن فيه استصراخ الحكومة المكلفة بدفع الحاجات



عن المعوزين ، كيف لا يعامل العايب بأموال الناس أقسى معاملة ، بل وكيف لا تقطع يده حتي يكف سواه عن مثل عمله الذي لا يقصد به الا محض الايذاء وازعاج الامن ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

وكيف لا يجلد رجل تسمح له نفسه الشريرة أن يشرب الخمر حتي يفقد الرشد ، ثم يخرج الي الشوارع والحارات يخيف الاطفال والنساء وربما ضربهم ؟ وكيف لا يجلد كذلك رجل يتهم أهل الاحسان بالنسق ، غير حاسب لما يبتنى على عمله هذا من حل روابط الاسر ، وهدم أركان البيوت ، ثم يعجز عن الاتيان بأربعة شهداء عدول يزرزون بشهادتهم ما يقول ؟

والذين يفسدون في الارض باضرار نيران الفتن ، وقلب النظم ، وازعاج الامن ، كيف لا تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو لا ينفون من الارض ؟

هنا أنظر لرحمة الشارع فقد قطع اليد والرجل استنفاً لهذه الجنايات التي تضيع فيها أرواح بريئة ، ثم فتح للحكومة باب الرحمة خفيها بين هذه العقوبة والنفي .

نعود الى الجلد فنقول : ليس في هذه العقوبة ما يؤخذ عليه ، فهي معمول بها في انجلترا وغيرها ، وفي السجون المصرية أيضاً . ولا بد لنا من التنويه هنا بحال الشهود ، فان القضاء الاسلامي لا يقبل ، وبخاصة في الحدود ، شهادة شهود يجمعهم المتقاضون من هنا وهناك ، فيشترط فيهم أن يكونوا من أهل العدالة ، وأن يشهد



شهود آخرون بأنهم أهل للشهادة . وفي الحادثة الآتية علم بما يجب أن يكون الشاهد عليه في الاسلام من الصفات، وبما كان عليه هذا الامر عند أسلافنا الاولين من الخطورة . أدخل رجل على عمر بن الخطاب في عهد خلافته ليشهد في قضية ، فطلب منه أن يحضر له من يشهد بأنه عدل ، ففعل . فلما مثل شاهده بين يديه قال له الخليفة أتعرف فلانا حق المعرفة ؟ فقال الرجل نعم يا أمير المؤمنين . فقال له أنت جاره صباح مساء لتعرف مدخله ومخرجه ؟ فقال الشاهد لا . فسأله عمر أعاملته بالدرهم والدينار الذي يستبين به ورع الرجل ؟ فقال المزكي لا . فقال له الفاروق أصاحبته في السفر الذي يتضح فيه ماهو عليه من مكارم الاخلاق ؟ فقال له الرجل لا . فقال له عمر لعلك رأيتته قائماً يصلى في المسجد يهيمهم بالقرآن ؟ فقال الشاهد إى والله يا أمير المؤمنين . فقال له عمر اذهب فلست تعرفه .

فالمسلمون الذين قاموا على هذه النظم المحكمة قد تأدوا في عشرات من السنين الى الحصول على زعامة العالم كافة في العلوم والفنون والسياسة ، ومدوا ملكهم الي بقاع لم يظاها علم غير علمهم الي اليوم ، فاختر لنفسك الآن ما يحلو : أتود أن يكون لامتك ملك لم ينبغ لامة قبلها ، وزعامة العالم في العلم والسياسة وفيها هذه الحدود ، أم تؤثر أن لا يكون لامتك شأن يذكر بين الامم ، ولا تكون في قوانينها مثل هذه العقوبات ؟

حكم الآيات المتشابهة في القرآن

آخر مطاب للاوساط من مطالبهم التي جمعناها وتكاملنا فيها هو أن يكون الدين لنا سائغا ليس فيه ما يحتاج لتأويل ، ولا ما يستعصى



على التعليل .

هذا مطلب لا ينال من دين يصل بين الناس وبين العالم الروحاني المشحون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، عالم الحقائق الاولية ، عالم الاصول الخالدة ، عالم القوى العلوية ، عالم الاطلاق المحض . فاذا قارنت بين مدركات عقلك وبين حقائق هذا العالم ، تحققت أن ايتاءك بقليل من العلم عن شؤونه يعوزه الشيء الكثير من التكلف والمحاولات ، ومن صرف الالفاظ عن ظواهر مدلولاتها ، ومن تشبيهه أمر بأمر لم يمت اليه بصلة ، ولا هو من جنسه مادة ووجودا .

أرأيت لو عهد اليك أن تعبر عن النور لمكفوف البصر ، فماذا كنت فاعلا غير الحوم حول الموضوع بما يدركه صاحبك بحواسه الاخرى ، والنسبة بين مدركاتها والمدركات البصرية منقطعة ، فتضطر للتشبيه البعيد ، وللقياس مع الفارق ، ولجميع العلل التي يأخذها المناطق على أهل التعبير . فاذا نظرت الي ما قلت وما قررت ، رأيت انك قد أتيت بعبارات تحتمل الخوض فيها ، وتصل بالخائض الي كل غاية الا الغاية التي رميت اليها .

هذا إذا عهد اليك هذا الامر لمكفوف من درجتك العقلية ، فما ظنك لو كان من طبقة العامة الذين لا يدركون الفروق بين مدلولات الالفاظ ، ولا الحدود بين مؤديات المعاني ، ولا الاطلاق والتقييد ، ولا اللازم والمزوم ، الي غير ذلك من ضرورات التعبير؟ لا اله الا الله ألا تعلم أن الناس سوادهم الاعظم عوام ، وأن هؤلاء مادة الامم



وأساسها البعيد الغور، وأن الدين أكثر ما يتوجه اليهم بالمواعظ، وأشد ما يتوعدهم بالمثلات، وأكبر ما يهيجهم الي طلب المجد، ويشيرهم الي قلب النظم، فهو من هذه الناحية في حاجة الي أن يفتح لهم الي عالم الملائكة يطلون منها على خيال مما فيه من قوى الحكم والتقدير، وشؤون التكوين والتدبير، ونافذة أخرى الي عالم الحياة الخالدة يشرفون منها على طيف مما ينتظر الناس في تلك الدار، من ثواب على فضيلة، أو جزاء على رذيلة، فهل تريد أن يكون ذلك الكشف لهم على ما عليه حقيقة الحال، وأقوى العقول وأرقاها لا تستطيع أن تتناول اليها، فما ظنك بالدهماء ومنهم الذي لا يدرك ما فوق ما كله ومشربه، ومنهم الذي ان رأى غير ما يعقله نفر منه وازدرى بالقائلين به؟ قال عليه الصلاة والسلام:

« خاطبوا الناس بما يعقلون أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟ »

فالدين أحوج المعقولات البشرية الي استخدام المجازات والكنيات والتشبيهات البعيدة، والقياسات مع أكبر النوارق، وأشدها شسوعا.

إلا أن الاسلام، وهو الدين العام الخالد قد وضع لهذا الامر نظاما، وحد للعقل فيه حدوداً، فلم يغمط الدين حقه في استعمال الالفاظ الموضوعية لتلك الشؤون العلوية، ولم يكلف العقل أن يصير أسير هذه التعبيرات البعيدة عن مؤدياتها كل البعد، فيجعلها لنفسه عقيدة صورية ان سلم بها الناس في جيل شذ عنها أبناءهم في جيل آخر، فقرر هذا الاصل الاصيل وهو: « وهو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم



زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله  
 الا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا وما يذكر  
 الا اولو الالباب »

ومعنى هذا أن في القرآن آيات محكمات الوضع ، واضحات المعاني ،  
 لا يستعصى فهمهن على انسان ، ولا يحتجن الى صرف ألفاظهن عن  
 ظواهرها ، هن أصل الكتاب واسسه ، وعليهن يقوم صرح هذا الدين  
 في المعتقدات والعبادات والمعاملات ، وفيه غير هذه آيات متشابهات ،  
 أى احتملات لمعان كثيرة لا تتضح مقاصدها لكونها مجملة أو غير  
 موافقة للظاهر ، فهذه في حاجة إلى تأويل ، وهو لا يوصل الى علم صحيح  
 للعلة التي ذكرناها آنفا ، فأما الذين أشربت قلوبهم الضلالة فيتعلمون  
 بظاهر ألفاظها ، أو يتناولونها بتأويل باطل ، طلباً لفتنة الناس بالتشكيك  
 أو رجاء ان يأولوه على ما تشتهي اهاؤهم ، والحال انه لا يعلم تأويله إلا الله ،  
 واما المتمكنون من العلم فيقولون آمنا بالكتاب كله ، محكمه ومتشابهه ،  
 وما يتذكر الضرورة التي تقضى بهذه المحاولات إلا اصحاب العقول .  
 فالاسلام بهذه الآية قرر بنص لا يحتمل التأويل ، انه لا يطالب  
 الناس الا بما اتى به محكم الوضع ، جلى المعانى ، لا تعترك فيه العقول ،  
 ولا تحار في كنهه الافهام . واما ما لا يدركه العقل ، وماتة قصر عن بيانه  
 الالفاظ ، وماتذهب المدارك فيه كل مذهب ، فالناس غير مطالبين  
 به . وزاد على ذلك فقرر انه لا يحاول تأويل تلك الآيات الا اهل الزيغ ،  
 فانها تتعالى حتى عن التأويل .

فهل معنى هذا انه حرم التأويل على وجه الاطلاق ؟



لا ، فانه قد يكون حتما لا مناص منه متى تعارض نضان من الكتاب ،  
ومتى تعارض نص من الكتاب وعلم صحيح ، فمثاله من الاول قوله  
تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » وقوله : « يدالله فوق  
أيديهم » وقوله : « كل شىء هالك الا وجهه » وقوله : « واصنع  
الفلك بأعيننا ووحينا » . فالآية الاولى تنص على انه ليس كمثله شىء  
نصاً لا يحتمل تأويلاً ، والآيات الاخرى يدل ظاهرها على ان له وجهها  
ويدا وعينا ، وهو مالا يثلج عليه الصدر ، ولا يتفق وحكم العقل ،  
وقد قضت به محسنات التعبير ليس الا ، فهذه يصار فيها الى التأويل ، وتد  
جرى على ذلك جميع المسلمين الاطائفة لا يعتد بها دعيت بالمشبهة .  
والاسلام يطلق الحرية لكل عاقل ، ولا يسد الطريق في وجه باحث .  
واما النوع الثانى وهو ان يتعارض ظاهر النص مع حكم العقل والعلم ،  
فهو أجل اصل اتى به هذا الدين ، وامنع وقاية تحميه شر الجود الذى  
وقع فيه اهل الاديان كافة ، وله اكبر الاثر فى بقائه ديناً عاماً خالداً ،  
والاطغت عليه تيارات العلوم ، وتمردت عليه قويات العقول ، فوقفته  
عند حد وسارت قدما تكشف المجاهيل ، وتقرر المعاليم ، حرة طليقة  
لا يقيدتها شىء ، تاركة الدين قاصراً على مبان اقيمت له ، فيها رجال  
لا تعدم منها فى شىء ، الى ان يعصف عاصف جديد من انقلاب وشيك  
فلا يبقى من آثار الدين شيئاً .

ولكن من اية الجهات تستطيع العلوم ان تطغى على الاسلام ،  
ومن اية النواحي تثور العقول عليه ؟ أمن مثل قول الكتاب :  
« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » ، وقوله .



« والارض بعد ذلك دحاها » أى بسطها ، وقوله . « فاذا سويته  
وتفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » ، وقوله : « سبع سماوات  
طباقا » الخ الخ ؟ كل هذه الآيات تتناولها القاعدة الاصولية التي  
انفرد بها هذا الدين وهي : انه لو تعارض نص وعقل أو علم صحيح ،  
أول النص وأخذ بحكم العقل أو العلم . وقد أول آباؤنا من هذه الآيات  
ماخالف عقولهم أو ناقض العلم الصحيح . ونحن نجري على سننهم فنقول  
ما يخالف عقولنا منها .

جری المسامون الاولون على هذا السمتم فكان تطورهم العلمی  
يعدم بالمعلومات ، وعلماءهم يؤولون لهم الآيات حتى تأخى العلم والدين ،  
وسار كفرسى رهان لا يسبق أحدهما الآخر ، فلم ينقسم الناس الى  
فريقين ، فريق للدين يقل كل يوم عدداً ، وفريق للمدنية يزداد  
كل يوم مدداً ، ولكن كانوا فى وحدة لا انفصام لها . فبلغوا الى ما لم  
تبلغه أمة قبلهم من بسطى الدنيا والدين .

### حظ العامة من الاسلام

العامة وان كانوا أكثر الطبقات عديداً ، إلا أنهم لا يستطيعون  
أن يستقلوا بنظر ، ولا أن يؤتمنوا على تفكير ، لذلك كانوا فى كل ملة  
وفى ملتنا هذه اتباعاً لخاصة من العلماء العاملين ، والاوساط المفكرين ،  
فهم لا يقتضون من بحسنا هذا أكثر من هذه السطور . وكل ما لهم  
فى أعناقنا من الحقوق أن نحسن تعليمهم ، ونعمل على تقايمهم مما هم فيه  
الى ما فوق درجاتهم من الدرجات ، فان الاسلام لم يقسم الناس الى  
طبقات ، ولكنه جعل معارج الترقى شائعة بين كل المستعدين للعروج



عليها ، فارتقى الي أرفع مقاوم العلم والفلسفة أفراد من العامة فأصبحوا  
مملوكهم أئمة ، ولم يستثن الاسلام حتي العبيد السود فكان منهم علماء  
أعلام ، ووزراء عظام ، بل ومملوك فخام .

في المقالة التالية ننظر في حظ العالمين كلهم على اختلاف أديانهم  
ونحاجهم من هذا الدين ، فهل أصابهم منه شر مستطير ، وبلاء كبير ،  
كما يحدث من آثار كل انقلاب اجتماعي خطير في بقعة من بقاع الارض ،  
أم نالهم خير عظيم وانتقال كريم ، كما هو شأن كل انقلاب شريف الغايات  
والمقاصد في الارض ؟

### أثر الاسلام في العالم كافة

ماذا كان عليه العالم على عهد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم  
لامشاحة في أن كل انقلاب اجتماعي يحدث في أمة من الامم  
لا تقتصر آثاره عليها ، فكما يفضى فيها الي زوال عهد قديم بما كان  
عليه من دين وتقاليد ومورثات وأسر مقدسة ونيوتات شريفة ،  
كذلك يفضى في مجاوراتها من الامم الي سقوط بعضها وفناء البعض  
الآخر في جثمانها ، وتمتد الصدمة التي يحدثها الي أبعد مما يتخيله  
الراؤون ، حتى قد يعم الامم كلها على نسب مختلفة .

فلا يصح أن ينظر والحالة هذه الي ما أدى اليه الانقلاب من حوادث  
جسام فحسب ، ولكن الي الروح العام الذي أوجده في العالم هل هو  
روح شغب واضطراب وتدهور ، أم روح نظام وطمانينة وترق ؟  
فلننظر الآن في نتائج الانقلاب الذي أحدثه الاسلام وما أصاب  
العالم منه ، وفي الروح العام الذي أوجده في الارض . ولا سبيل لنا الي



ذلك الا بعدمعرفة ما كان عليه العالم على عهده ودُعى هو للتأثير فيه .  
وقد رأينا أن ندع الكلام في هذا الموطن لمستشرق عليم من الاجانب ،  
قام بهذا الامر خير قيام في مقدمة فهرست وضعه لآيات القرآن  
باللغة الفرنسية هو المسيو ( جول لابوم ) قال ما ترجمته الحرفية :  
« لاجل أن يفهم الانسان تمام الفهم أى دعوة من الدعوات يلزمه  
أولا الامام بحال الداعى في ذاته ، ولاجل أن يقدر قدر دعوته يجب  
عليه أن يدرس الجهة البشرية التى وجه همته للتأثير فيها . هذا هو  
الغرض من هذه النبذة الوجيزة التى خصصنا بها المشتري العربى مؤسس  
ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية .

«حوالى ميلاد محمد فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم ملبداً  
بغيوم الاضطرابات والنمى . فكان شعب ( اليزيغو ) الآريين فى  
اسبانيا وفرنسا الجنوبية يصارلون الملك ( كلوفيس ) وأولاده  
الكاثوليكين . فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة امبراطور  
مملكة الرومان الشرقية المدعو ( جوستينيان ) ، ثم اجبروا الى الدخول  
معه فى حرب جديدة ، تخلصا من سلطة القواد الذين جاؤوهم بتلك  
المساعدة . فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين ، لا مجرد ولاء  
المساعدين المنجدين .

« أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد كلوفيس هذا متغادرين  
متسافكين ، وكانت الحروب التى شبت بين الملكة اليزيغوتية  
( برنهو ) والملكة الفرنكية ( فريديجوند ) تهيء للتاريخ أشد  
الصعائف إثارة للأسمى والكمد .



« أما في إنجلترا فكان الانجلو ينازعون الساكسونيين الارض التي احتلوها واستعبدوا فيها ذرية ( كيميريس ) وهم أقدم المغبرين على تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الامم علماء وصناعة وقوة ، وهي التي كانت في ذلك العهد مجالاً للقوة الوحشية السائدة في تلك الغيايب الحالكة .

« أما في ايطاليا فكان اسم الرومان ، وهو ذلك الاسم الشامخ ، قد فقد قيمته القديمة ، وكانت رومية وهي الشظية الاخيرة ، أوراس ذلك التمثال الكبير المتهشم ، ( يعني مملكة الرومان ) ، في حالة تاملها من استحالة أمرها الى مركز ديني بسيط ترتج وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكر عظمتها القديمة أيام كانت مركز دينياً أصلياً . فكانت تهيبء نفسها لان تكون مركز البابوية ، وهي تلك الساطة الزمنية كما اقتضت سياسة ( شرماني ) أن يجعها كذلك بعد قرنين من الزمان . ولكنها مع ذلك لم يسعها إلا حمل نير ( الهيرولين ) و ( الاستروغوتين ) و براطرة المملكة الرومانية واللومباردين الذين تداولوا الساطة عليها تداولاً .

« أما المملكة اليونانية فكانت قد نسيت مجدها القديم فصارت تابعة لمملكة الرومانيين الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء . وكان شرق أوروبا مقلقاً جنوبها من أول مصاب نهر الرين من جهة الشرق . فكان الاسكندينا فيون والنورفيجيون والدانماركيون يتزاحمون في الطريق الذي سلكه الغوتيون والهونيون الذين احتلوا تراقيا ومقدونيا ولومبارديا وايطاليا



سواء بالقوة أو بالخدعة .

« في ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى وهي تلك الأمة التي قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية .

« التصوير البديع الذي جادت به قريحة المسيورينان لبيان مركز الامبراطورية الرومانية في القرن الاول من التاريخ المسيحي لاعلاقة له بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوروبا في القرن السادس . تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة ، أما هذه فوحشية حربية تعاب بالارواح وتتمرغ في الاوحال .

« أما آسيا فلم تكن أهدأ بالا من أوروبا في شيء ، فمملكة تيبث والهند التي اقتبست منها الامم السائدة في أوروبا الآن قرأحها وأفكارها العامة ولغاتها والصين التي تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية ، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية . كانت هذه الممالك كلها متمزقة الاحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

« أما السفح الشمالي من الهضبة الاسيوية العالية التي هي في حوزة روسيا الآن فكانت غير معروفة على الاطلاق .

« أما مملكة الفرس التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب ، وبخاصة من لدن تجريدة الاسكندر المقدوني ، فكانت مشتبكة في حرب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية .



« أما في أفريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من جنود وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة دائبين على امتصاص دم مصر ، وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عادمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضاً في الاقاليم الخصبه وقتئذ الواقعة في الجهات الشمالية من أفريقيا التي انتزعوها من أيدي الفنداليين .

« الخلاصة كان جو العالم الارضى متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية في كل مكان ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير . وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في اصلاء نيران الحروب والمعارك ، ولم يكن يأخذ بعواطف التلويح ، ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً ، وان كان وقتياً ، الا شئ واحد ، هو الغنيمة وسلب الامم والشعوب والمدائن والاعيان ورجال الحروب وفقراء الحرائين وبسطاء المتسولين ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة ، وبعض الجرائم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب ، وانتقلت من روح الي روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجراة من رسل الرقي في المستقبل لكانت البربرية أسرع في خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية واستحالت الي وحشية محضة .

« مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الارض لم تصبه لفحة من هذه الحركة ، ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، وانما كان بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الامم التي



كان يقال انها متمدنة . ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمح انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوروبا الا عن بعد ، وما كان يصلها ذلك اللغظ الا غاية في الضعف والضؤولة ، وكانت تجهل وجود الهند والصين ، فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس الا من أخبار الانتصارات والهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سورية الي تبعية براطرة القسطنطينية تبعية اسمية ، أو رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها . على أن ذلك الوادي الاخير كان يهيم بلاد العرب جداً لان أبناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطيء الغربي من نهر الفرات وصعدوا يسيراً يسيراً الي بحر قزوين . وما يشبه المساتير الدينية انها بقيت منفصلة عن مصر التي أغار على جنوبها العرب الرعاة ، ولم ينجلوا عنها تماماً الا بعد أن انجلى عنها بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم .

« أما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد الحبشة . أما الجهة الشماليه من أفريقيا التي أغاروا عليها مرتين ، والتي كانت بجانبهم تقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحامون بوجودها . »  
ثم قال : قال المسيو كوسان دو برسوفال في كتابه تاريخ العرب :  
« ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا في الواقع أحراراً لاسلطة لاحد عليهم



وكان عرب سورية دائنين للرومان . أمقباثل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة ، وهم ملوك بني حمير ، سيادة وقتية فكانت تعتبر انها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها في الواقع كانت متمتعة بالاستقلال الكامل »

ثم تابع المسيوجول لابوم القول فقال : « ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم لقبول أي دين من الأديان . قال المسيو ( دوزي ) في كتابه تاريخ عرب اسبانيا : « كان يوجد على عهد محمد في بلاد العرب ثلاث ديانات الموسوية والعيسوية والوثنية . فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكاً بدينهم ، وأكثرهم حقداً على مخالفين ملتهم . نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الأقدمين ، ولكن ما وجد منه فنسب إلى اليهود وحدهم ، أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية ، وكانت هذه الديانة تحتوي على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسي كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة فكان لكل قبيلة بل وأسرة منهم آلهة خاصة . والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ، ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ، ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان إذ لم يتحقق إخبارهم بالمغيبات ، أو لوعولوا على فضحهم عند الأصنام إن قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعجة ، وكانوا يسبون أصنامهم إذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم »



وقال المسيو كوسان دوبرسوفال : « من العرب من كانوا يعبدون الكواكب وبخاصة الشمس . فكناينة كانت تدين للقمر وللديبران ، وبنوخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى ، وكان الاطفال من بنى عقد يدينون لعطارد ، وبنو طيء أهوا سهيلا . وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعري اليمانية ، وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة آرائهم الدينية .

« وقال المسيو كوسان المذكور أيضاً : « كان من العرب من يعتقد بفساد الانسان اذا خلعتة المونون من هذا العالم . ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة . فكان هؤلاء الاخرون اذا مات أحد اقربائهم يذبجون على قبره ناقة ، أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعاً ، معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بصورة طير يسمونه الهامة أو الصدى ، وهو نوع من البوم لا تبرح ترفرف بجانب قبر الميت نائمة ساجدة ، تأتيه بأخبار أولاده . فاذا كان الفقيد قتيلاً تصيح صداه قائلة ( اسقوني ) ، ولا تزال تردد هذه الكلمة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه .

قال المسيو لابوم بعد إيراده هاتين العبارتين عن الاستاذين المذكورين : « وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب يكادون لا يجوزون العقبة الاولى من عقبات الاجتماع ، ولهم تكن الاسرة عندهم بل والقبيلة ، ( وهي نقطة تلفت النظر ) ، تهتم اهتماماً عظيماً بحفظ سلسلة نسبها ، ولولم يكن ، ( وهو أمر أغرب من سابقه ) ، ادراكهم للقوانين وسعة لغتهم داعياً الى الالتفات بنوع خاص .



ثم قال : « قال المؤلف المحقق الذي اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة : « كان العرب مغرمين بشرب الخمر . ويوجد من الشعر ما يدل على انهم كانوا يفتخرون ويعجبون به وبلعب الميسر ، وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء هو . وكانت الارملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها . ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الاب ، وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجا ممقوتا . وكان لديهم عادة أفظع من كل مامر وأشد معارضة للطبيعة وهي وأد الاهل لبناتهم أى دفنهن أحياء »

« هذا كله لا يشير الى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة ، يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حباً جماً ، ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى »

« الافراد الذين كانوا تابعين لامم أرقى من الامة العربية ، والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب ، كانوا قليلى العدد جداً ولا يظهر انهم كلّفوا أنفسهم الدعوة الى مللهم ، فاليهود الذين كانوا متشبعين بالاثرة على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين ، لا يرى منهم الى اليوم خاصية التأثير على غيرهم الا بالخضوع لقوانين الامة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالامور المالية . ولئن شوهده انهم ادخلوا الى ملتهم بعض العرب ، فلم يك ذلك الا نتيجة بسيطة لاشتراكهم فى الاساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الامتين . تلك القرابة يستدل عليها أيضاً بتساويهم فى حب الكسب ، وتآزيرهم



في الاستعداد لعدم الانفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر  
لنيل كسب أو حظام : ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه  
الاعتبارات أدنى ترق أدبى . أما المسيحيون فكانوا يفتدون شيئاً  
فشيئاً الى بلاد العرب هرباً من الاضطهادات الدينية التي كانت في المملكة  
الرومانية ، ولكن لم يكن في حالهم نور يلفت البصر تألقه ، وفي حالة  
مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فانه لا يمكن أن يتحلى الانسان  
بمدرجات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد .  
« في عهد هذه الاحوال الخالكة ، وفي وسط هذا الجيل الشديد  
الوطأة ، ولد محمد بن عبد الله في ٢٩ أغسطس سنة (٥٧٠) . » انتهى .  
تعلقنا على هذه الفذلكة التاريخية

رأى القارئون من الفذلكة التي عمها المستشرق المسيو جول  
لابوم في ما كان عليه العالم على عهد ميلاد محمد خاتم النبيين صلى  
الله عليه وسلم ، انه كان في حاجة ماسة الى صيحة من صيحات الحق  
المعهودة في بعض ادوار الانقلابات البشرية ، تنبه الغافلين وتوقظ  
النائمين ، ثم تهيب بهم الى النظر في انفسهم ، والتفكير في مصيرهم ،  
والعمل على امتلاخ وجودهم من ايدي اللاعبين بهم ، والمقامرين  
بحياتهم ، والى قارعة من قوارع القهر ترد عادية زعماءهم وتكبح كلب  
قاداتهم ، والى قبس ساطع من نور الحكمة يكشف الحجب المسدولة  
على أعين الناس ، والغلف المضروبة على قلوبهم ، لكي يربأوا بانفسهم ان  
يعيشوا اغناماً ويموتوا اغناماً .

نعم وهذا هو الذي كان ، فبعث الله خاتم النبيين الى شعب يجهل



وجود نفسه فضلا عن وجود غيره ، ولا يحدث نفسه بنهوض فضلا عن أن يفضى به الي سواه. شعب كان قد نضبت حيويته حتي صارت لا تنجب بعض ما تنجبه الامم من قائم بدعوة أو مهيب الي حياة ، وما هي الا سنوات تعد على اصابع اليد حتي رأينا ذلك الشعب الذي كان جامدا بالامس يتطلب لقاء اكبر دولة في الارض ، وهم الرومانيون ، فاصطدم بجيوشهم في سوريه فسحقها بكتائبها المدربة ، وحطم معاقلها المشيدة ، واجتاز حوائطها الممنعة ، وقذف بها الي ما بعد حدود تلك البلاد ، واجبرها على اعطاء الدنية ، والصبر على هون ، والرضاء من الغنيمة بالاياب.

وفي الوقت نفسه انتقضت على فارس وهي تلك الدولة القديمة التي كانت تمثل كل ما كان في الشرق من خيلاء الحكم المطلق ، وغلواء الاصول الرجعية ، وما هي الا صدمة صادقة حتي تداعى صرحها المشمخر واصبحت في ذمة التاريخ.

كل هذا في اقل من عقدين من السنين ، فكان اثره كالصاعقة انتقضت على اكداس من العهن المنتوش ، فلا تسل عما استتبع ذلك من الدوى الهائل في امم لم تعتد مثل هذه الصدمات ، ولم تكن تحلم بان في العالم قوة تستطيع أن تحدث فيها هذه الرجة التي زلزلت الارض زلزالا. ثم ما هي الا عشرات من السنين حتي اندفعت تلك العصابة الي اوروبا ، لالتستغل الضعفاء ، وتتضخم بامتصاص حياتهم ، كما كانت الامم اعتادت ذلك من الفاتحين الاولين ، بل ومن اصحاب الظلم من ابناء جنسهم ، ولكن لتخرجهم من الظلمات الي



الى النور بفتح دور العلم، وقبول الكفاة فيها غير ناظرة لاديانها ونحايها، فكانت كالشمس تشع على العالم نور اساطعها، وحرارة محيية. فجمعت ما وجدته من تراث العقول معطلا في بطون الكتب، فنقلته الي لغتها وشرعت تزيده من جهود علمائها، وبحوث فلاسفتها، مطبقة اياها على العمل حتى اصبحت بيئة العلم، ومعدن الصنائع والفنون، يعيشو الاوربيون الي نارها، ويستضيئون بنورها .

وكان اخوانهم في الشرق قد سلكوا من ناحيتهم هذا الطريق نفسه، فاصبحت هذه العصاة الاسلامية بقسميها منزعجا لكل متعطش لعلم، ومستهدا الى حق، ومتطلب لثقافة، فانتقل العالم كله تحت ظاهها الظليل من الجود الذي كان فيه، والهون الذي كان عليه، والغيبوبة التي كانت أملت به، الي حياة جديدة ونشاط لم يكن للناس من قبل . وبعد ان كانت الامم لا تنتظر الا كسفان الظلمات، وتارات من الغارات، اصبحت تتطلب من ناحية هذين المركزين نورا يهديها الي الطريق، ويسوقها الي العمل .

وما زالت تدب الحياة في اشباحها المصبرة، حتى تألت منها عصاة تقوم بامرهم، نتصدى لها انصار القديم يسومون آحادها الخسف، ويصبون عليهم اسواط العذاب، ويزهقون ارواحهم لا لشيء غير انهم يتطلبون النور والحياة، حتى تم لهم الغلب في القرن السادس عشر، دهر طويل قضوه في الكفاح والمجادة، ولكنهم ما كانوا يستطيعون ان يرفعوا كل مالقى على عقولهم من السدف، وعلى نفوسهم من الكسف، قبل مرور هذا الزمن، وكان المسلمون هم الدافعون لهم الي هذين



## الحركة

قال العلامة (دراير) المدرس بجامعة نيويورك في كتابه (المنازعة بين العلم والدين):

«سلك علم العرب الي اوروبا المسلك نفسه الذي ساكته أديباتهم اليها. وذلك انه انهمر عليها من طريقين، جنوب فرنسا من جهة الاندلس، وطريق جزيرة صقلية (سيلسليا). ومما ساعد على انتشاره في اوروبا اعتزال البابوات في مدينة (افينيون)، والتفرق العظيم الذي كان موجودا في المسيحية اذذاك، فلهذا السبب تمكن العلم العربي من ترسيخ قدميه في جنوب ايطاليا.

ثم قال: «وبرسوخ قدمى العلم في جنوب ايطاليا، امتد رواق سلطانه على جميع البلاد الايطالية. وساعد على انتشاره وتكثير انصاره هنالك زيادة عدد الجمعيات العلمية. وكان ذلك على مثال ما وجد في غرناطة وقرطبة تحت سلطان العرب». انتهى

ولم تزل مستكشفات العرب تدخل الي اوروبا حتي القرن الثامن عشر، وتصادف مقاومة عنيفة. قال العلامة دراير المتقدم ذكره في صفحة ٢٣٠ من كتابه: «ان عمل التطعيم (في النباتات) الذي اكتشفه المسلمون حمل الي اوربا سنة ١٧٢١ من طريق استامبول، فصادف في انجلترا مقاومة عنيفة من رجال الدين لولا تدخل الاسرة المالكة. وقال العلامة (سديو) أحد وزراء فرنسا في كتابه تاريخ العرب: «كان المسلمون في القرون الوسطى متفردين في العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها انما حات اقدمهم وتسربت عنهم الي اوروبا



فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقاؤها »

ولم يكتب المسلمون بان يكونوا معلمين للاوربيين، وملقنين لهم النهوض والمدنية، ولكنهم اسسوا في بلادهم جامعات، واقاموا مرصدا، باعتبار انها كانت تحت سلطانهم، فبقيت لاهلها بعد جلائهم واثمرت ثمراتها الياضعة لهم، فقد قال العلامة (دراير) في كتابه عند ذكر المدارس الطبية عند العرب:

« واول مدرسة انشئت للطب في اوروبا ( اوربا من اقصاها الي اقصاها ) هي المدرسة التي اسسها العرب في بالرم من ايطاليا، واول مرصد اقيم فيها هو ما اقامه المسلمون في اشبيلية باسبانيا. ولو اردنا ان نستقصى كل نتائج هذه الحركة العظمية لخرجنا عن حدود هذا الكتاب، فانهم قد رققوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا، وأوجدوا علوما أخرى لم تكن موجودة من قبلهم ». انتهى

هنا قد يستغرب بعض القارئین هذا الامر ويقولون : اذا كان العرب هم اول من اسسوا المدارس الطبية، واقاموا المرصد في اوروبا، فكيف كان شأنها على عهدهم، وعلى اية حالة كان اهلها يعيشون ليكن أن يعرف مبلغ ما اثمرته مدينة العرب فيهم ؟

نقول نعم، اننا نحدثك عن ذلك منقولا عن كتاب ( المنازعة بين العلم والدين ) للعلامة دراير، قال:

« ان اوروبا في ذلك العهد كانت غاصة بالغابات الكثيفة من اهل الناس للزراعة، وكانت المستنقعات قد كثرت حوالى المدائن فكانت تنتشر منها روائح قتالة اجتاحت الناس واكلتهم، ولا مغيب



لهم. وكانت البيوت في باريز ولوندره تبني من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب، ولم يكن فيها نوافذ ولا ارضيات خشبية. أما لابسطة فكانت مجهولة لديهم، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الارض نشرا. ولم يكونوا يعرفون المداخن، فكان الدخان يطوف البيت ثم يتسرب من ثقب صنعوه له في السقف. فكان الناس في هذه البيوت معرضين لكل انواع الاصابات الخطيرة. وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون باحشاء الحيوانات، واقذار المطابخ، أمام بيوتهم اكواما اكواما تتصاعد منها روائح قاتلة ولا رقيب ولا حسيب. وكانت الاسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة من رجال ونساء واطفال، وكثيرا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية.

«وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش، فوقه كيس من الصوف كمخدة. وكانت النظافة معدومة لديهم لا يعرفون لها رسما. «وكان الغني منهم لا يأكل اللحم الا كل اسبوع مرة، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح.

«هذه الجهالة كان من اثرها على اوروبا ان عمتهما الخرافات والاهام، فاحصر التداوى في زيارة الاماكن المتدسة، ومات الطب وحييت احابيل الدجالين. وقد كان اذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين الي الصلاة ولم يلتفتوا الامر النظافة، فكانت تفتك بهم الوباء فتكا ذريعا، حتى انها زارت اوروبا عدة مرات فاجتاحت الملايين من أهلها في ايام معدودة. وقد كان الموت في اوروبا في هذه العصور بنسبة واحد الي ثلاثة وعشرين فصار اليوم واحدا الي اربعين» انتهى







ولا تسل عما أحدثته مدينة أوروبا في كل الممالك المتصلة بها  
والبعيدة عنها، وكل ذلك يرجع الفضل فيه إلى المسلمين، فلولاهم لبقيت  
أوروبا في غيابتها إلى اليوم ولم تنل منها أهم المعمورة ما نالته من  
التقدم والمدنية أما مباشرة أو بالواسطة.

فالعالمون كلهم مدينون لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم  
بما هم عليه من حياة وقوة، وبما في نهضتهم من الروح المؤدى إلى التكميل  
والحمران والمدنية.

أليس هذا مصداقاً لقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»؟

### حظ الكون من الإسلام

لكل شيء حظ من الإسلام، فالجمادات بحثه على إحياء مواتها،  
والنباتات في تحريضه على التأمل في أنواعها، وفي الإبداع المفاض على أجزائها  
والحيوانات بأمره بالعناية بها، والشعوب بحضه على احترام حقوقها،  
قد نالت من هذا الدين حظوظاً موفورة تضمن لها وجودها، وتسمح  
لها بالتطور في حدودها، فهل علمت أن الكون في لانهائته وعظمتته  
لم يحرم نصيبه منه أيضاً، فكان هذا الدين رحمة شاملة، ونعمة على  
العوالم سابعة؟

أى شيء أجل قدراً، وأعظم أثراً، في نفس المكبرين لشأن الكون،  
والمعتقدين بأنه مستقر جميع القوى، ومستودع كل ما يتخيل من  
الخيور، من أن يجعله الإسلام منفزعا لسالكين إلى الله، يستهدون  
بمعامله في حيرتهم، ويستأنسون بآياته في تأملهم، ويسرون على ضوء  
هدايته في تطوره؟ ألم يقل كتابه في ألوان شتى من البيان: «قل



انظروا ماذا في السموات والارض » ويقال : « وكأين من آية في السموات والارض يرون عايتها وهم عنها معرضون ؟ » ، ويقال : « وفي الارض آيات للموقنين » ، ويقال : « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولي الالباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار » ، ويقال : « وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » ، ويقال : « وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا » .

هذا ومن يتتبع ماورد في الكتاب من ذكر الآيات المودعة في الحيوانات والنباتات الشاغلة لسطح الارض ، حتى ما حقر من حشراتهما كالنمل والنحل والبعوض ، وفي المياد والانهار والسحب والرياح والجبال والوديان ، وفي كل ما يقع تحت الحس من أشياء الكون ، حتى اختلاف الالوان واللغات ، وفي جعله النظر في كل هذا طريقا للاتصال بالروح العام ، وجلب الطمانينة الي النفوس المتوهلة الي الدخول في ملكوته ، قلنا من يتتبع هذا كله في الكتاب الكريم يتحقق أن هذا الدين يفتح باب الطبيعة على مصراعيه في وجه ذويه ، ويدعوهم للتفكير في جميع كائناتها ما جل منها وما حقر ، لا ارضاء لشهوة العقل ، واستكمالاً لحظ النفس من العلم فحسب ، ولكن للوصول الي عالم النور المحض ، والعروج الي مستوى الكمال الذي تخيله النفس ولا سبيل الي طمأنينتها المرجوة إلا بالوصول اليه . وهذا أسلوب لم يتوخه دين من قبلي . لذلك



اندفع المسلمون وراء العلم فاندفاعا لا هوادة فيه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنت سنين كما يقول العلامة درابرن في كتابه (المنزعة بين العلم والدين) ، وكما هو الواقع المحسوس ، فجمعوا في سنوات معدودة بين علوم الهند والفرس واليونان الاقدمين ، المستخرجوها من مخابرها القضيية ، بعد أن كان قد تركها أهلها واستنابوا الي حاله من الجهل والجمود ، هي التي جاء الاسلام فانقذهم منها ، وفتح أمامهم باحات العلم الصحيح ، فكانت هذه الحركة داعية لقيام المدنية الحاضرة ، كالعالم لنا لنقله لم يفتأ مل في حكمة هداية الدين كيف جعل العلم والحكمة سببا للاشراقات الروحية ، وهما في الواقع سلبها المباشرا ، فندفع بأهلها لتطابقها من السموات والارض ، فكان لهم منهنما نصيبا موفورا في سنين معدودة ، كما انهم قد نشأت لتبناياتنا عيطا بالبالنظر بهذا وتذكركم جر التأمل في الكون ، والوقوف على بعض مسائره من صنوف العذاب ، وشكول الاضطهاد على الامم التي وقعت تحت سلطان حفظة الاديان ، فكان نصيب المفكرين الموت على أفضع ضرره ، اما الحترقا بالنار أو غرقا في اليم أو ترديا من شاهق أو المخرق كل ممزقة قصته ، كما انهم متدينه لنة يملين هذا كل دافى هذا الباب ، فان الاسلام قديما كبر من شأن الوجود الي حد أنه أقسم به وبكائناته في غير موطن ، فقال : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم » ولا هذا زائدا ، لنتي فالنظر كيف أقسم بمواقع النجوم ، ثم أردف ذلك بقوله وانه لقسم (لو تعلمون) عظيم ، وهذا من أحسن ضروب الاشادة بنا كبر الاجرام



العلوية ومواقفها ، والبحث على راصدها وضبط متعلمها فان كل تلك  
لهذه الآية يقول فماذا عسى أن تكون مواقع النجوم التي يقسم  
بها الله ، ويكبر من شأنها الى هذا الحد ؟ فتتساق العقول لرفع الستار  
عن هذا المستور ، لتدرك تلك العظمة التي ينو الخالق نفسه بحالاتها  
هذا التنويه . لتدرك تلك العظمة التي ينو الخالق نفسه بحالاتها  
لم يكتب الاسلام بتردد ما تشاهده العين من كائنات الوجود ،  
وحفز العقول لتنورها والتأمل فيها ، وتدارسها وتحصيل القرب منها  
قيومها من ناحيتها ، ولكنه كشف العقول بقوله : « فلا أقسم بما  
تبصرون وما لا تبصرون » بأن في الكون عوالم خفية لا تراها العين ،  
وان هذه الكائنات جديدة بأن يقسم بها مبدعها في هذا اللون من  
الاكبار ، وقد أوجزها في آية تفعل في العقول فعل السحر ، وما زال  
الناس يظنون أن ما لا يبصرونه هو عالم الروح وما فيه من صنوف  
الكائنات العلوية ، حتى جاءت العلوم الحديثة فبكتفت لنا أن فيما  
لا نبصره عالما من الاحياء لا عدد لا حاد يتحكم في صيغتنا ومرضا ،  
ويتسلط على أجسامنا وعقولنا ، هو عالم الميكروبات التي يكشفها المجهر  
والميكروبات المتناهية في الصغر ولا يستطيع كشفها ، وقوى هائلة  
يمكن أن يستخدمها الانسان في أجل الاغراض واسماها كالكهربائية  
والمغناطيسية ، وكالاشعة الكونية التي يعزى اليها الابداع والايحاء ،  
وكالاشعة المعتمة المختلفة المحيطة بنا من كل مكان ، بين البنفسجية  
وما وراء البنفسجية ، وأشعة اكس واشعاعات المواد الارضية كلها ،  
وما لبثت على نظرية التيارات الاثرية من الاتصالات اللاسلكية



وغيرها ، مما تحققه التجارب في الايام المقبلة ، ويعتبر أكبر وأجل ماوصل اليه الانسان من مساتير الكون ، وأعظم موصل له الي سواه مما لانحس بوجوده اليوم بحاسة من حواسنا .

فللكون كما ترى أجل نصيب من الاسلام ، وفرق بين أن ينظر فيه الناظر توفية لشهوة عقلية ، وحباً في كشف المساتير ، وبين أن ينظر فيه باعتبار انه مستقر القوتين المادية والروحية ، وباب الوصول الي الحضرتين الصورية والمعنوية ، ومنتزل الاشراقات القدسية ، مما لاغنى للنفس والعقل عن التطاع اليه ، وبذل قصارى الهمم في الاتصال به .

نعم فرق شاسع بين هذين النظيرين . وقد انفرد بالثاني المسلمون فتأدوا الي بسطتي العلم والدين ، فكما كانوا أعلم علماء زمانهم بالكون المادى وكائناته ، كانوا كذلك أقرب الناس من ملكوت الله وأمتعهم بأنواره ، فلم تختلط المدنية لديهم بالملاذ البدنية ، والاباحات الخلقية الي حد انها تهدد بالزوال والارتكاس الي الوحشية كما هي اليوم .

وهل يتخيل علم أجل أثراً ، وأينع ثمراً ، من علم يؤديك الي كمال الحياتين ، وغاية السعادتين ؟ لا شك في أن هذا الاسلوب القرآني قد اتبع اليوم فعلاً ، فصارت نظريات الذين يتصدون لدراسة الكون ذات ناحيتين مادية وروحية ، فلاشئ يمنع بعد اليوم أن يصل الي مالا عين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر من الترقيات المادية والروحية ، ولا ريب في أن القرآن هو أول من دعا الي ذلك مصداقاً لقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » .



## خط الدفاع الأخير

لقد أقمنا في مقالاتنا السابقة الأدلة القاطعة على أن الاسلام دين عام خالد ، وأن الرسول الذي جاء به هو خاتم المرسلين ، وأن ما أتى به هو خاتمة الوحي الالهي للبشر كافة ، فكان جملة ما كتبناه كخطوط دفاع عن هذه الحقائق لا يمكن اقتحامها مهما تذرع الخصم لذلك بالشبهات والاضاليل ، ولكننا رأينا ، ولم يبق علينا الا الخاتمة ، أن ننشئ خطا دفاعيا وراء جميع هذه الخطوط ، نقبسه كله من القرآن الكريم ، هو أقوى وأمنع منها مجتمعة ، لما فيه من روعة الكلام الالهي وسلطانه على العقول ، فنقول . قال الله تعالى :

قل يأيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السموات والارض ، لا إله الا هو يحيي ويميت ، فأمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون .

وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فأمنوا خيرا لكم وان تكفروا فان لله ما في السموات والارض وكان الله عليا حكيما . وما أرسلناك الا رحمة للعالمين .

فاصدع بما تؤمر وأعرض من الجاهلين ، انا كفيناك المستهزئين . يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل



لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير .  
 يأيتها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا .  
 فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل

ويهديهم اليه صراطا مستقيما  
 ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون .  
 هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين .  
 قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى  
 لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى  
 اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .  
 قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه  
 سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الي النور باذنه ويهديهم الي

صراط مستقيم . ان ربنا لعليم حكيم  
 يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لمن ألما في الصدور  
 وهدى ورحمة للمؤمنين .  
 وكذلك أوحينا اليك روحنا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب  
 ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء .

قل هو نبي أعظم أتم عنه معروضون ، ما كان لي من علم بالملاء  
 الأعلى اذ نختصمون ، ان يوحى الي انما أنا نذير مبين .  
 ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدي

الي صراط العزيز الحميد .  
 هو الذي أنزل اليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب



وأخر متشابهات ، فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا اولوا الالباب . لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

قل لمن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصىنا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب . وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الي أجل مسمى لقضى بينهم ، وان الذين أورتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ( أي لا محاجة ولا خصومة ) ، الله يجمع بيننا واليه المصير . ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك فقلت أسأمت وجهي لله ومن اتبعني ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين ءأسأمتم ، فان أسأمتوا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد .



أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات والارض طوعا  
وكرها واليه يرجعون ؟ قل آمن بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم  
واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وما أتى موسى وعيسى  
والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .  
فتوكل على الله انك على الحق المبين انك لا تسمع الموتى ولا تسمع  
الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ،  
إن تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون .  
فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك  
الذين هداهم الله وأولئك هم أولوالالباب .

فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة ، الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل  
خلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .  
قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الي ابراهيم واسماعيل واسحق  
ويعقوب والاسباط ، وما أتى موسى وعيسى ، وما أتى النبيون من  
ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل  
ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما هم في شقاق ، فسيكفيكمهم  
الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن  
له عابدون .

ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء .  
آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله  
وملائكته وكتبه ورسوله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا  
وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير .



ان الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ،  
ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين  
ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعدنا للكافرين عذابا مهينا .  
أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما يتذكر  
أولو الالباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين  
يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ،  
والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم  
سرا وعلانية ، ويدرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار .  
وعدا الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض  
كما استخلف الذين من قباهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى  
لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ،  
ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم التماسقون .  
قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد  
الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ،  
فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون .  
أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان  
يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .  
وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا .  
قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد .  
بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم  
الويل مما تصفون .



قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو الاذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين ، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ، أم يقولون به جنة ، بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . ولواتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون . أم تسألهم خرجا نفرا ج ربيك خير وهو خير الرازقين . وانك لتدعوهم الي صراط مستقيم .

وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم ، أتم بريئون مما عمل وأنا بريء مما تعملون .

ومنهم من يستمعون اليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر اليك ، أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون ؟ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم .

لا اكره في الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون .

ولو شاء ربك لا آمن من في الارض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون . قل انظروا ماذا في السموات والارض ،



وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . فهل ينتظرون الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين .  
 رأيت من اتخذ الهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا .  
 هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انما يتذكر أولوالالباب ؟ ( أى أصحاب العقول ) .

هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون الا الظن وان أتم الاتخراصون .

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

قل هذه سبيلي ، أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ،  
 وسبحان الله وما أنا من المشركين .

وما يتبع أكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يغنى من الحق شيئا .  
 واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟  
 انهم ألنوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ، ولقد ضل قباهم أكثر الاولين .

أم يقولون افتراه ، قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا ، هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيدا بينى وبينكم ، وهو الغفور الرحيم .  
 واصبر وما صبرك الا بالله ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون .

وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون . ( بكسر اللام )



وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون !  
فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ان الله عليهم بما يصنعون .  
ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء .

لست عليهم بمسيطر . وما أنت عليهم بجبار . قل لست عليكم بوكيل .  
ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون  
ان الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم .

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله  
ذو فضل على العالمين .

أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل  
الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر .

وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبنا حسابا شديدا  
وعذبناها عذابا نكرا .

من كان يظن أن لن ينصره في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب  
الي السماء ( أي فليمدد بجبل الي السقف ) ثم ليقطع ، فلينظر هل  
يذهبن كيده ما يغيظ ( أي أن من يظن أن الله لا ينصر محمدا فليشقق  
نفسه يأسالانه ناصره حتما ) .

كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز .

سنة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .  
وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون  
الرسول عليكم شهيدا .

وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ، فاعترفوا



بذنبيهم فسحقا لأصحاب السعير .  
 سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ،  
 أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟  
 من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنجزيه حنة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .  
 من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .  
 كل أمرىء بما كسب رهين .  
 من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .  
 ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به .  
 لا يكلف الله نفسا الا وسعها .  
 ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا .  
 ولا يجز منكم شنان قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ( أى ولا تحملنكم عداوتكم لقوم على ظلمهم ) .  
 يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .  
 ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها الا الذين صبروا ،  
 وما يلقاها الا ذو حظ عظيم .  
 وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ،  
 وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، ان الله لا يحب



المفسدين :

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم .  
 ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى، وينهى عن  
 الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون .  
 ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر  
 من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى  
 المال، على حبه، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين  
 وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا،  
 والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا  
 وأولئك هم المتقون .

قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى  
 بنير الحق ، وأن تشركو بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله  
 ما لا تعلمون .

ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون  
 عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا  
 واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم .  
 يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم  
 أو الوالدين والأقربين .

قول معروف ومغفرة، خير من صدقة يتبعها أذى .  
 وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله .  
 كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن



المنكر وتؤمنون بالله .

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم  
ولم يظاهروا على إخراجكم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب  
المقسطين .

ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم وليتم  
نعمته عليكم .

والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات  
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي  
هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .  
ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين .





## خاتمة

رأى القارئون من كل ما كتبناه في هذا الكتاب، أن الإسلام بحق وبكل دليل دين عام خالد، وقد تدرع بكل الأصول العليا التي تحمله هذه المكانة عند الآحاد والجماعات .

فقد دعا إلى الوحدة الإنسانية العامة، ومحق ما كان بين الشعوب من فوارق القوميات، وأوهام الطبقات الاجتماعية، وقرر أن أصل الأديان واحد، وأن الخلافات التي يشاهدونها بينها إنما سببها بغى قادتها، فهم الذين خاقوها لمصاحبتهم الذاتية . ولذلك تركهم جانباً ووجه دعوته إلى الناس كافة، لا إلى الآحاد الممتازين منهم، ولا إلى الجماعات التي تتصدر للنياحة عنهم، وهدم التقليد من أساسه، وطالب كل معتقد بالبرهان، وأعلن أن إيمان المقلد غير مقبول، ونادى بسلطان العقل، ووجه العقول إلى النظر في الطبيعة وفي كائناتها، وحضها على تعرف السنن الاجتماعية بدراسة أحوال الأمم، وتتبع تطوراتها في العصور المختلفة، مصرحاً بأن للاجتماع سنناً لا تقبل التبدل ولا التحول . وحض على طلب العلم والحكمة من أقصى مظاهرها، وشدد في ذلك على الجنسين حتى جعله عليهما فرضاً، وربط فهم الدين بهما، فقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام .

ثم توسع في الإشادة بالعلم إلى أقصى ما يتخيله العقل، وأتى بذلك في ألوانه هي أقصى ما يسمح به الإبداع الكتابي في عشرات من الآيات، فقال تعالى : « ولنبينه لقوم يعلمون »، وقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »، وقال : « وتلك حدود الله نبينها لقوم



يعلمون» ، وقال : « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق » ، وقال : « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم » ، وقال : « ائتوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة من علم » ، وقال : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » وقال : « ان في ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام . وقال : « وقل رب زدني علما » .

وقد سمي أهل الجاهلية بالذين لا يعلمون ، فما هذا كله ؟ والله لو كان محمد صلى الله عليه وسلم تخرج في كسفورد أو السوربون أو جامعة برلين ، لما جاء كتابه بأكثر من هذا في الدعوة الي العلم ، فما ظنك وقد كان في أبعد الامم عن معاهده ، وأشدّها جهلا بأصوله وفروعه ، فما سر هذا الامر الجمال ، وماذا أريد منه ؟  
سر هذا الامر أن هذا الدين خاتمة الوحي الالهى ، وما كان كذلك .  
وجب أن يدرك بكل ما يقتاد العقول ، ويستهوى الفهوم ، ويعلو على كل مذهب يتصدر للزعامة في الارض .

وقد علم موحيه أن سيكون زمان يعتك فيه الدين والعلم ، ويظهر الثانى على الاول بسمو أصوله ، ودقة أسلوبه ، فجعل دينه الاخير أجمع لهذه الاصول وأرعى لهذا الاسلوب من أبعد المذاهب العلمية شأوا في هذا الباب .  
هذا مظهر غريب من مظاهر مناعة هذا الدين ، وصلاحيته لجميع الازمان ، ولم يبق بينه وبين أن يعلن انه دين الانسانية العام الا أن يفهمه الناس على هذا الوجه .

لو كان ما نقوله مأخوذا من القرآن استنتجا ، أو من طريق التأويل ، لكان الخطب على خصمه ، ولكنه مقرر فيه بالنص ، ومكرر في ألوان شتى الي حد الافراط ، وليس هو بافراط ، ولكنه أشباع لموضوع



سيكون في يوم من الايام محك النظر بين الناس .  
 أن هذا الامر من العجب بحيث لو عرضته على أحد من المفكرين ،  
 من غير المسلمين ، لأنكره أشد الانكار ، لأنه يراه قد جاء سابقا  
 لاوانه بأكثر من الف سنة ، وهو محال في نظره . واذا ثبت له انه موجود  
 في القرآن بنصوص لا تحتمل التأويل ، ومكرر في ألوان شتى من البيان ،  
 لكان هذا وحده أدل دليل في نظره على حقيقة الاسلام ، وعلى انه حال  
 بكل ما يتخيله العقل من المؤهلات لأن يكون ديناعا ما خالدا . فهل بالغ  
 الكاتب الانجليزي الكبير (برناردشو) في قوله ان العالم كله سيصبح مسالما ؟  
 لا ، انه لم يبلغ ، ومن العجيب أن القرآن نفسه قد أنبا بهذا عينه  
 فقال تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم  
 أنه الحق » ، وقال « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

كان أحد أصحابي يتحدث الي وأنا سائر معه في أمر هذه المقالات  
 التي نشرتها في الجهاد ، ويذهب الي انها قد بلغت مدى بعيدا في التدليل  
 على صحة الاسلام وسلامة أصوله من الضعف ، فشكرت له قوله ثم قلت له  
 هب بعد هذا كله أن يقول لك قائل انه لا يعتقد برسالة محمد ، ويرى  
 انه هو الذي وضع القرآن ، فاذا كنت قائل له ؟ قلت قل له اذن فقد  
 وضعت محمد افوق مكانات الانبياء ، فان عربيا يولد يتما في بيئة أمية  
 باحتة ، ليس فيها أثارة من علم ، ولا عهد لها بدعوة ، ولا خيال  
 من حركة فكرية ترمي الي غاية اجتماعية ، وفي جو مشحون بأخبار  
 الغارات والثرات ، يضع كتابا يشحنه بأصول لم يحلم بها الفلاسفة  
 الاقدمون ، ويملاؤه بمبادئ لم تتولد في هذه القرون الاخيرة  
 إلا عقب تطورات اجتماعية ، وانقلابات فكرية لا تدخل تحت حصر ،



ويغرس أعلاما واضحة لشريعة تتمثل فيها الحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات لم تتطعم اليها شريعة ولا في القرن العشرين، ويقرر للعقل والعلم أسلوبا يبرز ما وضعه غطارفة الفلسفة، وعباقرة العلم الى هذا العهد الاخير، قلنا ان عربيا في تلك البيئة، لو كان هو نفسه واضع ذلك كله، لكان مخلوقا قد منحه الخالق قوى فوق قوى البشر، وعقلا أعلى من عقولهم، تهتم دراسة نفسيته على الناس تحتما، ويكون نتيجة ذلك أن يعتبر آية من آيات الله في الارض.

نعم، لأن الرجل قد يسبق الزمان الذي يولد فيه في الاصل أو الاصلين، أما سبقه الكافة في مجموع من الاصول هو أخص ما يقوم عليه البشر من أمرى الدنيا والدين، ويأتي من كل ذلك بالنهايات القصوى، ثم هو مع هذا التفوق المحير للعقول ينكر على نفسه كل فضل في وضعها، ويعمل على تكوين جماعة تقول بها، وتجري على سذنها، وينجح في ذلك كله انجاحا مدهشا تحقيقا لو وعده في قوله تعالى: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض» فتصبح هذه الامة بيئة العلم والحكمة والسلطان وزعيمة للامم كافة فيها مدى قرون طويلة، فتتحقق هـذا كله من المحالات العقلية. فان ثبت أن رجلا قام به فيكون ذلك الرجل هو الذي يحلم به (نيتشه) ويدعوه بالسوبرمان. زد على هذا أن هذا الرجل على خلاف جميع المصاحين، قد قام في أمة لاتواتى مطامحه في الاجتماع لتغلغلها في الفرقة، ولا في التعقل لتوغلها في الجاهلية، ولا في التفكير والنظر لمرآتها في الامية، ولم تكن قد تطورت الي حد أن تلين في يده، وتستقيم الي مذهبه، ومع كل هذا رأيناه يقول: «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوى عزيز»



ويقول مجيبا على تهديدهم : « أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر »

أعلن الاسلام عن نفسه انه خاتمة الوحي الالهى ، وانه الدين العام الخالد ، فوجه خطابه الي البشرية كلها ، ولم يوجهه لامنة بعينها مرة واحدة ، وصرح بأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين . وهذه كلها دعاوى ليس فيها شيء من الغرابة ، فقد يتفق أن يقولها كل من تحدته نفسه بها ، ولكن العجب العاجب أن تطابق هذه الدعاوى الواقع . فلم يقم داع بعد محمد مدعيا النبوة الا تكشف أمره عن جنون يستحق عليه الرحمة ، ولم يعرض على العالم كتاب تحت عنوان وحي سماوى بعد القرآن الا تضح أمره عن أفك مبين . فلم يبق الادعوى أن الاسلام دين عام يصلح لكل جماعة فى كل زمان ومكان ، وقد رأيت انه كيف أقام الحجج على ذلك بفيض من الاصول لا تبقى فى نفس أى متعنت حاجة الي المزيد ، وتسمح لكاتب مثلى فى القرن العشرين أن يستخدم كل أسلحة الثقافة العصرية فى سبيل تأييدها ، وينجح فى ذلك الي حد بعيد .

هذا عجب الي أقصى ما يبلغه الخيال من معنى هذه الكلمة ، وأعجب منه المناعة التي تحلى بها الاسلام لتقيه شر التحجر الذي تمنى به التعاليم الدينية من وقوفها فى حيز محدود ، مع تقدم العلوم فى مدى العصور ، وتطور العقول بتوالي الانقلابات . وهذه المناعة فيه تقوم على خمسة أركان :

( أولها ) جعله للعقل والعلم السلطان المطلق ، والحكم الفصل حتى ولو عارضا نصوص الكتاب ، فجعل فى تأويلها سبيلا للمباشرة الترقيات العلمية والعقلية .



(ثانيها) حرضه على طلب العلم وجعله اياه سبيلا للرقى الروحاني كما هو سبيل للرقى المادي، ليقطع على الجامدين كل أمل في التحكم بالدين على صد الحركة العلمية . ولذلك كان المسلمون الاولون أسبق الامم الي كل علم، وأسرعهم الي كل جديد متأولين كل ما يعترضهم من الكتاب . (ثالثها) عدم حصره الفهم في الدين في جيل من الناس، ولا قصره اياه على طائفة معينة منهم ، ولكنه فتح باب النظر والتجديد فيه للكافة على مصراعيه في كل زمان ومكان كما رأيت .

(رابعها) سنه سنة التجديد في الدين نفسه، فقد علم أن لكل زمان مناهج للفهم ، ووجهات للتفكير ، ومسلمات أو مرجحات خاصة ، فاذا لم تتجدد الفلسفة الدينية وتطبق على الحاجات الجديدة بلسان أهل كل عصر، وتشمل عناصر ثقافتهم جمدت حيث عي، وتركها الناس ومضوا مع العلم لا يلوون على شيء . فقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله يرسل على رأس كل مئة من يجدد لهذه الامة أمر دينها » .

(خامسها) حسنه مادة القيل والقال في الكتاب، وحمایته اياه من الخبط والخوض فيه ، والذهاب في تأويل آياته كل مذهب ، وكتب الوحي لا تخلو من الاشارات الى عالم الروح والكائنات الخفية ، والى الحياة الاخرى وما فيها من ثواب وعقاب ، والى التنويه بمحوادث ماضية ، وأساطير قديمة امترجت بعقول المتقدمين ، وصارت عنصرا من عناصر شخصياتهم ، وكل هذه الامور تقبل الاخذ والرد ، ويجد فيها الخصوم مسانغا لجعل الكتاب عرضة للنقد ، بل ربما حملت الكثيرين على الحكم عليه بمخالفته للعلوم ومناقضته للتاريخ ، وخروجه عن دائرة المعقول ، فجاء الاسلام بما يحسم هذه المادة حسما ، فأمر الله في نص صريح بعدم الخوض فيها أو محاولة تأويلها، مصرحاً بانها لا تقبله بحال، وانه لا يحاول



ذلك فيها الازائع العقيدة ، فقال تعالى : « هو الذي أنزل اليك الكتاب  
منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم  
زيع فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله  
الا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر  
الا أولوالباب

فهذه الاركان الخمسة التي تقوم عليها مناعة الاسلام ، تكفي أن  
تحميه شر كل ما يتصور من المحملات وعوامل الهدم ، وهي تدل على الهية  
هذا الكتاب ، وانه وضع ليبقى بقاء الانسان مصوناً من كل تصدع .  
فاذا طمع طامع بعد هذا في هدم هذا الدين والتشكيك فيه ، فليطلع  
قبل أن يشرع فيما تصدى له على كتابنا هذا ، ليأتى ان استطاع بأسلحة  
جديدة ، اما كل ما عهدته الناس لخصوم الاسلام من الاسلحة المعروفة  
فقد تحطمت وأصبحت هباء تذرره الرياح ، وبقي الاسلام سليماً من كل  
شبهة ، وسيبقى كذلك مادامت الارض والسماء :  
أفلت شمس الاولين وشمسنا أبدا على أفق العلا لا تغرب

## دفع شبهات عن الاسلام

كان بعضهم أعلن في الجرائد أن في مكتبة الجامعة الأمريكية كتاباً  
يدعى ( مسائل في الدين ) ، اشتمل على طعن في الاسلام والقرآن وخاتم  
النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ودل على ما يقول بإيراده النص  
الانجليزي . فقمنا بالرد على هذه الشبهات في جريدة الجهاد ، ونرى  
من متممات هذا البحث أن تأتي على تلك الردود هنا فاليك :



## تصحيح اخطاء تاريخية ودينية

ملاحظات على كتاب مسائل في الدين

حدث في هذه الايام الاخيرة أن أحد طلبة الجامعة الامريكية أذاع في الصحف أن هذه المدرسة تقوم بدعوة ضد الديانة الاسلامية، واستشهد على دعواه بقطعتين انجائزيتي العبارة، اقتبسهما من كتاب اسمه (مسائل في الدين)، يعطى لطلبة السنة الاولى، قرأناهما فأنقينا فيهما أقوالا عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القرآن والاسلام تنافي الحقيقة. واذ كان هذا الكتاب معول تلاميذ في الاخلاق والدين ردحا من الزمان، فقد وجب علينا أن نتتبع هذه الاقوال بما يدحضها، تصحيحاً لعقيدتهم من ناحية، وتقويماً لرأى الجامعة الاميريكية من ناحية أخرى، كيلا تقع في مشابها وهي بين ظهرائي عرفة هذا الدين وفضاحل كتابه.

نظرنا في هذه الاقوال التي قرأناها فرأيناها تدور حول ثمان مسائل :

١ أولها — أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أولي به أن يعتبر مريضاً عصبى المزاج .

٢ ثانيها — انه في أواخر أيامه كان يلجأ الي التصنع، فيدعى انه يرى من المشاهد الروحانية ما يتفق وحاجاته المادية .

٣ ثالثها — انه كان يرتكب أعمالا من القسوة والغدر في سبيل أصابة مراميه القومية والدينية .



٢ رابعها — أن الدين الاسلامي حربي تعوزه لطافة المسيحية ورقتها .  
٣ خامسها — انه لم يثبت أن الاسلام دين ترق .  
٤ سادسها — انه يجيز الرق وتعدد الزوجات ويسهل على الزوج الطلاق ،  
وان ماتعانيه المرأة اليوم من حالتها السيئة سببه غيرة النبي المتطرفة .  
سابعها — ان ا كثار النبي من الحث على الصدقة يرجع الى ما قاساه  
في طفولته من الحرمان واليتم . وهذا أيضا علة كثرة المتسولين حيثما  
تدرس تعاليمه .

ثامنها — أن القرآن مشحون بأخبار المشاهدات الروحانية البعيدة  
عن العقل ، وانه يعوزه البيان الساحر ، والترتيب الضروري . وهذا  
من أعظم علل الاملال والارتباك التي لهذا الكتاب ، مما جعله غذاء  
عقيا لدوييه .

هذا ما يخص ما قرأناه في تينك النبتين ، وقد رأينا أن نكر على  
كل منها بالرد لغرض علمي بحت ، بعيدين عن جميع الملبسات التي تمس  
هذا الموضوع فنقول :

هل كان محمد مريضاً عصبي المزاج ؟

الذي أجمع عليه المؤرخون أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث قبل  
النبوة اربعين سنة يشتغل بجسمه وعقله لكسب القوت . فعمل أولاً  
في الرعاية ، ثم في التجارة وقد سافر في سبيلها الى الشام ، فقام بهذين العاملين  
على أكمل الوجوه ، حتي أن السيدة التي كان يعمل في تجارتها ارتضته  
زوجاً لها لما رأته من أمانته ، وما آنتسته من التوفيق الذي صادفه .  
وقد ورد في التاريخ زيادة على هذا انه كان من القوة الجسدية



فوق الحالة العادية ، حتى قالوا انه صارع ( ركانة ) في الجاهلية وصرعه .  
وقد كان ( ركانة ) هذا من أصلب الناس عوداً وأشدهم أسراً . وقد  
غرى الناس بتتبع أحوال المشهررين ، واعتبرت سيرة النبي على وجه  
خاص من أولي الامر بالتحريض والتفلية ، فلم ينقل عن أحد ممن  
تصدى لهذا الامر انه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أولي  
به أن يعتبر مريضاً . بل قالوا انه كان يتمتع بصحة كاملة ، وان كل  
ما يروى عن لون بشرته وامتلاء جثمانه يدل على ذلك أصرح دلالة .  
وقد روي عنه انه كان يقود المعارك ، ويقارع صناديد الجاهلية ،  
والمريض لا يستطيع ذلك بوجه من الوجوه .

أمانه كان عصبي المزاج ، فإراد مؤلف الكتاب الذي نحن بصده  
انه كان من أولئك النوراستانيين ( *Neurasthéniques* ) الذين  
فقدوا التوازن الحيوي فصاروا عاباً وحدثهم بين المرضى والاصحاء .  
وهذا مالا يمكن التسليم به ، لان هذه الحالة العصبية لا توجد إلا لمن  
تكون أعمالهم جلوسية . ولذلك قرر الاطباء أن النوراستانيا لا وجود  
لها بين الجماعات العائشة على حالة قبائل ، وأنها من ثمرات الحياة المدنية  
لتوالي التأثيرات الخارجية على الاعصاب فتضمحل وتشتد حساسيتها ،  
حتى تجعل صاحبها من اضطراب الجسم والعقل في حالة كرب ويأس  
وتشاؤم ليس لها حد .

فمن أين ينال محمداً مثل هذه الحالة ، ولم تكن حياته جلوسية ، بل  
كان يعمل بجسده لكسب قوته الي أن بلغ الاربعين من عمره ؟  
ولو كان على شيء من هذا خلافاً لمقررات علم الطب لبلغنا عنه



الشيء الجمل لكثرة المتتبعين لحواله .

ويظهر من سياق عبارة كتاب مسائل في الدين أن هذه الحالة كانت تمثل له مالا حقيقة له من المشاهد الروحانية، كما هو حال بعض المرضى من ذوى الامزجة العصبية ، ولكن فات المؤلف أن مثل هؤلاء المرضى لا تصدر منهم إلا أعمال مشوشة مضطربة . والمعروف طبياً انهم لا يتعرضون لتحمل اعباء الاعمال التي لا بد منها لكسب قوتهم، وأكثرهم يصبحون عائلة على ذويهم، فان تعرض بعضهم لها على كره منه ، أوقع اللوث والاضطراب فيها ولم يحسنها على أى وجه كان .  
والذى شوهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم دفع بنفسه للدعوة إلى دين في وسط أمة برمتها وحيداً أعزل لاحول له ولا حيلة ، وقد تذرع بكل ما يتذرع به الرجل القوى، ذوالارادة الحديدية لبلوغ غايته، وما زال بهذا الامر الجال يربو ويتحمل أطواره وتكاليفه، حتى جاء دور الاحتكام إلى الاساحة، فقاد الامور في هذا الدور أحسن قيادة ، وخاض بنفسه المعارك وأبلى فيها البلاء الذى ليس بعده غاية، حتى لم تحمض عليه فرة واحدة، وقد حفظت على أعظم فرسان الجاهلية .

فاذا كان هذا كاه يصدر من رجل دنف، ذى مزاج عصبى مريض، فهو مخالف لسنن الطبيعة ، ويقوم بدحضه كل شيء في عالم التجارب الحيوية . والتعرض لمصادمة الواقع المحسوس الى هذا الحد من مؤلف، لا يكسب ذويه غير الاشتهار بعدم التحييص في المسائل التاريخية ، وهى تهمة لولصقت بهم أفقدتهم أئمن ما يتسلح به خصم شريف في ميدان ديني يجب أن يحاط بجميع الخلال الشريفة والصفات الكريمة .



هذا ما عن لنا أن نقوله في الأمر الأول، وسنوالي البحث في الأمور الأخرى على حسب ترتيبها والله المستعان .

### هل كان محمد يتصنع الوحي ؟

المسألة الثانية التي نقلناها عن كتاب مسائل في الدين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتصنع في آخر سني حياته الوحي، لتحقيق أغراضه . وهذه عبارة لا يستقيم لها معنى بذاتها ، إلا إذا ضم إليها شرح من العارفين بشبه خصوم هذا النبي الكريم . لأنه يمكن أن يقال إذا كان محمد تصنع الوحي في أواخر أيامه ، فهل كان صادقاً في ادعائه الوحي في أوائل حياته ؟ كيف تعقل مثل هذه الحالة ؟ لا تعقل إلا إذا كان مؤلف ( مسائل في الدين ) يرى رأى القائلين بأن محمداً لم يكن في أوائل أيامه كاذباً فيما يدعيه من رؤية الملك ومن سمعه أقواله ومن شعوره بالوحي الباطن ، لأنه كان في زعمهم مريضاً عصبى المزاج مصاباً ( بالهستيريا )، فيرى ويسمع مالا حقيقة له ويحسبه حقائق، ويصبغه بصبغة العقائد التي تملأ قلبه ، والصور التي تشغل عقله . ولكنه في آخر أدواره خفت وطأة الهستيريا عنه فكان يستر عجزه بالتكاف، فيدعي أنه أوحى إليه ولم يوح إليه، رامياً بذلك إلى تحقيق أحلامه الاجتماعية والدينية .

هذه مزاعم الناظرين في سيرة محمد وأعماله، ممن لا يتدقون بامكان اتصال إنسان بالعالم العلوي، بل ولا يعتقدون أن هنالك عالماً علوياً . فقد كبر عاينهم أن يصموه في أول حياته بالتضليل والتدجيل، وقد تحمل في سبيل دعوته مالا يتحملة المتكفون ، ولقي مالا يصبر عليه



المتصنعون ، ولكن ما عذر مؤلف كتاب مسائل في الدين وهو يعتقد بالوحي ، ولا يضمن به على رجال كثيرين ممن لم يعملوا جزءاً من ألف مما عمله خاتم النبيين ، ولا أثر لهم بجانب آثاره التي غيرت وجه المعمور من حال الى حال في سنين معدودة ؟

اننا ذكرنا شبهة الهستيريا فلا يصح لنا أن نترك أكثر القارئین يتساءلون عن ماهية هذا الداء، وعن كنهه الخيالات والضلالات الحسية والمعنوية التي يولدها لهصاب به ، وعن مكان هذه الشبهة من سيرة رسول الدين العالمي الاخير .

الهستيريا كما بينه الاساتذة الاعلام كريكيه ولاندوزى وشاركو داء عصبي عضال، أكثر ما يعترى النساء ، وهو وراثي صفاته المميزة شذوذ خلقي حاد، وحساسية متطرفة تصل الى حدود غير معقولة ، ثم يزداد المرض نشوباً فيشعر المصاب به بالاختناق، وبضيق في الصدر عظيم، وبخفقان مزعج وارتعاش، وباضطرابات خطيرة في الهضم، وقد يصحب هذه الاعراض شلل في بعض الاعضاء .

فاذا تابع هذا المرض تقدمه جاء دور التشنج، فيسببه بكاء وعو بل وكرب عظيم وهذيان ينتهي بالاغماء .

فان تجاوز هذه الدرجة، دخل في دور أشد من كل ما مر خطورة، فيرى المريض به أشباحاً تهدده أو تسخر منه أو تزعجه ، ويسمع أصواتاً لا وجود لها في حس غيره . ومن أخص مميزات هذا الدور شعور المصاب بكثرة تأخذ بمخنقه، فلا يزال يضطرب منها حتى تفقده الحس تماماً، فيقع في الاغماء وسط حركات مضطربة بيديه ورجليه،



وقفز من مكان الي مكان على صورة توقع الذعر في قلب كل من يراه  
فلا يجد لانتقاذه حيلة غير الصبر حتي تزول عنه يسيراً يسيراً لتعاود  
الكرة عليه بعد حين.

فهل كان النبي صلى الله عليه وسلم هستيريا تنتابه هذه الاعراض؟  
لو كان كذلك لوجب وضعه في أقصى درجات هذا المرض، لانه كان  
يرى شبحاً يظنه ملكاً، ويسمع صوتاً يتخيله وحيّاً، وهذه الامور  
من مميزات الدور الاخير لهذا الداء، حين يتفاقم أمره وتشتد وطأته  
ويبرز شغائوه. ومتي كان المصاب في هذا الدور وجب أن يكون هدفاً  
لجميع أعراضه، من أول شدوذ الاخلاق والحساسية المتطرفة والحنقان  
المزعج والبكاء والنشيج والهديان (أى الهلوسة)، الي التخبط باليدين  
والرجلين، والقفز بالجسم كاه من مكان الي مكان، فهل نقل عن خاتم  
المرسلين شىء من هذه الاعراض الثقيلة على كثرة الذين تتبعوا احياته  
وتعقبوا أعماله؟

وهل عهد في تاريخ العالم أن مريضاً بمثل هذا الداء العضال، الذي  
أعجز الطب قديماً وحديثاً، يندب نفسه لتطهير أمة برمتها من أرجاس  
الوثنية، وتوحيد كلمتها، وجمع متفرقها، وإيمانها بدستور ينظم شؤونها،  
ويسدد خطواتها، وينقلها من طورها المتحجر الذي كانت فيه الي  
أطوار متعاقبة تندفع فيها اندفاعاً طبيعياً مرتباً على موجب النواميس  
الاجتماعية، حتي تصل بعد ثمانين سنة الي درجة دولة لا تغرب  
الشمس عن أملاكها، هي أكبر دولة عرفها تاريخ البشر الي اليوم؟  
إذا كان محمد وهو هستيرى مريض في رأيهم يوفق الي مثل هذه



الامور الجسام، حتي يغير سطح المعمور من حال الي حال ، مما لم تأت  
بمثله اقيال الفاتحين ، ولا كبار الملوك والسلاطين ، بل ولا أولو العزم  
من المرسلين ، فماذا كان صانعا لو كان رسولا حقا يري الملك ويسمع  
منه الوحي ؟

ولو كان هذا حال رجل خيالي مريض شاذ الاخلاق، وعرضة  
لجميع الاعراض التي ذكرناها، أى من الصنف الذي اذا رأته رحمته  
واستعدت بالله من حاله، فماذا بقي للصادقين الكاملين، وللاصحاء العاميين،  
من الذين اذا رأيتهم افتخرت أن تكون واحداً من أشياعهم؟  
هل عهد أحد في تاريخ الانسانية أن المرضى المتهوسين يصلحون  
لقيادة أنفسهم فضلا عن التصدي لقيادة الامم وايصالها الي أوج لم  
تصل اليه أمة قبها ولا بعدها ؟

هب أن الهذيان يؤى المصاب بالهستيريا الي التصدي لمثل هذه  
الخطة ، فهل يكون حاله في الدعوة اليها امثل من حال المجنون يضحك  
من يسمعه يهذي بها، ويستدعي غيره ليشاركه في التاهي بما يقول ؟  
هل بلغك أن العرب الجاهليين ضحكوا من دعوة محمد صلى الله عليه  
وسلم واتخذوها هزواً ولعباً، أم قابلوه بالاضطهاد، وصبوا على أشياعه  
ألوان العذاب، حتي اضطروهم للهجرة الي الحبشة مرتين، ثم الي المدينة ،  
وهناك شنوا عليهم الغارات الشعواء، وتآلبوا عليهم ولم يتركوا وسيلة  
الا استخدموها لحل جماعتهم ، ثم انتهى أمرهم بالخضوع للنبي  
خضوعاً لا حدله ؟

لا يستطيع أعداء محمد مهما تنطعوا في تصيد الشبه وحياتها



من مختلف الاعالييل، أن ينالوا من شخصيته الفذة ، فان ما أثرته من الثمرات مما لم يتسن مثله لمصلح بل ولالرسول قبله، تدحض كل فرية تلفق للاحط من قدرها، وتبني لصاحبها صرحا من المجد جديداً، وتوحي الى الذائدين عن كرامته أدلة تجعل مالفقه خصومه هشيما تذوره الرياح .  
في الفصل الآتي ننظر في الشبهة الثالثة ان شاء الله .

### هل كان محمد قاسيا وغادرا ؟

من متمات رسالة النبي صلى الله عليه وسلم تأسيس دولة اسلامية تحدث في العالم انقلابا هو في حاجة اليه، لبعث الامم من سبائها الذي كانت وقعت فيه بعلى شتي . ومؤسسو الدول لا معدل لهم عن الاعتماد على اقوة في قمع من يثور من الافراد، ومكافحة من يقف في سبيلهم من الجماعات . وهذه الخطة تمس القسوة، ويشتبه بعض أمورها بالغدر ، فيسهل على كل مرجف أن يصم كل قائد ومؤسس مماكة بهذين الوصفين، كما فعل مؤلف كتاب ( مسائل في الدين). وقد يجد ما يستدل به عليهما ولو تعسفا . ولكن المدار على ما يدونه التاريخ الصحيح في صحيفة كل عامل يستحق أن يشغل مكانا فيه . وقد كلف الناس بنقد سير السلاطين والقادة، والذهاب في المغالاة بصغريات أعمالهم وكبرياتها كل مذهب .

وقد غرى كثير من الفاتحين ومؤسسى الدول بأن يعرفوا بالقسوة، وشدة الوطأة، ليلقوا الرعب في قلوب الشعوب، ويكون اسمهم مقرونا بالشر المستطير . ومنهم من كان يباهى بذلك على رؤوس الاشهاد .



فكان (اتيللا) ملك الهونيين مخرب ملك الرومانيين يتمدح قائلاً: إن العشب الاخضر لا ينبت حيث يطأ جواده ،  
وقد حفظ التاريخ لكبارهم من حوادث القسوة والغدر، وغلظ الالكباد، مالا يكاد يصدقه العقل . فقد غزا بختنصر بيت المقدس وأحرق كل ما وصلت اليه يده فيه ولم يحترم المعابد والهيأكل، وأعمل السيف في أهلها، ثم اقتاد معه من بقى من اليهود فزق شملهم في الارض كل ممزق .

وكان النماذج المغولى تيمور لنك يدخل المدينة فلا يبقى فيها على نسمة . وقد تخيل اهل مدينة مرة أن يقابله بألوف من أطفالهم حاملين المصاحف، استنزالا لعطفه . فلما شرفهم أمر بعض جنوده بأخذها من أيديهم ، ثم اوعز لفرقة من خيالته أن يوطئوهم سنابك الخيل، ففعلوا، وقتلهم على تلك الصورة . وكثيراً ما كان يقيم ماذن في البلاد التي يفتحها من جماجم قتلاه، أو يبني اسراهم أحياء في أسوار المدن كأنهم بعض الاحجار .

هذا غيض من فيض من سير كبار الفاتحين ومؤسسى الدول .  
أماماروى عن القادة المتمدنين، على تورعهم من أعمال القسوة، وتوقيعهم من سوء القالة، فلا يمكن حصره ، ولا لضرب لك الامثال تفاديا من جرح عواطف الامم .

انقرء محمد صلى الله عليه وسلم عن جميع القادة والفاتحين ومؤسسى الممالك باقتران اسمه بالرحمة في نص لا يحتمل تأويلا فقد قال الله تعالى فيه :  
« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » وقال : « فبإرحمة من الله لنت لهم ،



ولو كنت فظا غليظ القلب لاتفضوا من حولك « وقال : « وإنك لعلی خلق عظیم » . وقد نحله الله من صفاته صفتين لم ينحلهما بشراً قبله ولا بعده، فوصفه بأنه رؤوف رحيم .

وقد أكثر هو نفسه من نشر خصلة الرحمة في أشياعه، فكان يكثر من قوله : « الراحون يرحمهم الرحمن . ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » . وقال : « ان الله رفيق يحب الرفق » . وقال : « أتدرون من يحرم على النار يوم القيامة ؟ كل هين لين سهل قريب » .

وقد عرف صلى الله عليه وسلم بالرفق والرحمة في جميع مواقفه الخاصة والعامه . فأما في بيته فقد كان من الوداعة والرفق بحيث لم يؤنب خادما قط على اهل . قال أنس بن مالك خدمت رسول الله ثمانين سنين فما قال لي قط لشيء عملته لم عماته ، ولا لشيء تركته لم تركته . ومن آيات رحمته ورقة قلبه انه كان يسمع بكاء الطفل وهو يصلي فيسرع في صلاته ليرى ماذا يؤذيه .

وقد امتدت رحمته على مخالفيه في الدين مع اصرارهم على مخالفتهم فقال : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » .

وقد شمت رحمته الحيوانات العجم، فقال اركبوها صالحة واعتملوها صالحة واذبحوها صالحة . أي غير مريضة ولا هزيلة . فكان بهذا الحديث أسبق الناس بمئات من السنين الي تقرير المراقبات الصحية على الحيوانات المعدة للركوب والاعتمال والذبح، والي تأسيس جمعيات الرفق بالحيوان . وقد شدد في النهي عن عدم الاكتراث بأحوال الحيوانات فقال : « لاتتخذوا ظهور دوابكم مجالس » . أي لاتتمضوا مدة



في الحديث وأتم ممتطون صهواتها لا تبالون بتعبها .  
 وأشد من هذا في الرحمة بالحيوان قوله: « دخلت امرأة النار  
 في هرة حبستها فلاهي أطعمتها ولاهي تركتها تأكل من خشاش  
 الارض » أي من حشراتهما . وهذا أبلغ ما سمع من مصلح في وجوب  
 حفظ حقوق الحيوان والاحسان في معاملته .

أما في حياته العامة، وقيادته للجنود، ومزاحفته للعدو، فقد كان  
 مثالا للرحمة والرفق، فإنه سن للحروب سننا لم تكن معروفة من قبله ،  
 فأوجب اعلانهم الحرب، وحرّم على جيوشه أن تتبع المهزومين، وأن  
 تجرز على المجروحين، وأن تقتل طفلاً أو امرأة أو واحداً من رجال  
 الدين أو متعبداً في صومعة أو شيخاً فانياً . وشدد عليهم النكير أن  
 يحرقوا شجراً أو يهدموا بناء أو يسيئوا الي أسير . بل أمرهم أن يكرموا  
 أسراهم فقال: « استوصوا بأسراكم خيراً »، فكان الرجل يكتفي في غذائه  
 بالتمر ويخص أسيره بالخبز .

وكان يحفظ العهود ويراعى شرائطها، ويأمر رجاله أن يفعلوا مثل  
 فعله، ائتماراً بتول الكتاب: « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مستولاً »  
 وقوله: « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . وقوله في صفة المؤمنين:  
 « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » .

فلم يعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم قسوة ولا غدر في سلم  
 ولا حرب . ولو كان قاسياً غداراً خالف بفعله صريح الكتاب من  
 النهي عن العدوان، والامر باتباع العدل في قوله تعالى: « ولا تعتدوا  
 ان الله لا يحب المعتدين » وقوله: « ولا يجز منكم شيئاً ان قوم علي أن



لا تعدلوا، أعدلوا هو أقرب للتقوى « أى ولا تحملكم كراهتكم لقوم على أن لا تعدلوا فى معاملتهم .

أما كراهته لاراقة الدماء بغير حق فما تضرب به الامثال ، فانه طلب اليه ازالة وثنية منحطة كانت ناشبة أظفارها فى شعب برمته ، فوقفته جامداً متحجراً آمادا طويلة ، وكانت انتهت الى حالة من الخسة والاباحة لا تطاق . وهذه خطة يعجز عنها كل مصلح . فاستخدم أولا الدعوة السامية حتى ألف دولة ، ثم عمل على الاجبار ، والاجبار مشروع فى كل ملة لازالة الوثنية حتى فى المسيحية نفسها ، فقد حمل الامبراطور قسطنطين الرومانيين على التنصر بالحديد والنار واستخدمت الكنيسة القوة ضد شعوب كثيرة الى أن باد بعضها . فلم يكن دين محمد بدعا من الاديان فى هذا الباب ، الا انه أحاطه من ضروب القيود بما ينم على عراقته فى الرحمة ، وعلى انه خلق مثالا لكل عمل انساني تقوم به الاجيال التى تاتى بعده . وقد رأيت الشرائط الحربية التى ذكرناها ، وزادها تأكيداً بوجوب احترام حياة من يقبل الاسلام ولو هرباً من القتل . فقد قتل بعض أصحابه من نطق بالشهادة والسيوف يهوى على رأسه ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم لما بافه ذلك وتبرأ الى الله من عمل صاحبه . فقال له يارسول الله انهم يفعلون ذلك ظاهراً ليتقوا القتل حين لامناص منه ، ثم يعودون الى دنائنا . فقال له قد يكون ذلك ، ولكننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر . ولانظن أن قائد جيش ، أو متصدياً لتأسيس مملكة ، يتورع من سفك مثل هذه الدماء . هذا ما يمكن أن يقال فى الشبهة الثالثة وفى الفصل التالى نحل الشبهة



الرابعة ان شاء الله .

هل الاسلام دين حربي تعوزه اللطافة والرقه؟

اذا قيل إن الاسلام فرض على رسوله والمؤمنين الاولين الحرب للدفاع عن أنفسهم، وازالة الوثنية من جزيرة العرب ، وانه لكونه ديناً عملياً مماشياً لسنن الوجود وتطورات الانسانية، أباح لذويه الحرب اذا دعت اليها ضرورة الاجتماع ، وهي لا تزال داعية اليها ، فهذا صحيح ، وليس عليه منه ذام ، وأشهر الاديان العالمية تشاطره هذه الصفة وتزيد عليه فيها شدة بنسبة تقدمها في الميلاد .

فاليهودية فرضت على أهلها الحرب حفظاً لوجودهم وللتمكن في الارض، والتبسط في الفتح . والمسيحية اضطرت في القرن الرابع أى بعد أن أصبح لها دولة تحت قيادة الامبراطور قسطنطين الرومانى أن تستأصل شأفة الوثنية من المملكة الرومانية بالحديد والنار . ثم لما حصلت الكنيسة على السلطة الزمنية، جعلت الحرب من وسائلها، فاتخذت الجيوش والاساطيل، وتوسعت في ذلك الى أبعد حد . وهل يغيب عن ذاكرة أحد مآثره في التاريخ عن الحروب المسماة بالصليبية التي أعلنتها المسيحية على الاسلام للاستيلاء على بيت المقدس ؟ أما كان رجالها يطوفون البلاد يدعون الناس للحرب المقدسة، فشبوها ناراً تطفى بقيت نحو قرنين، أكلت فيها مئات الالوف من الحكمة المغاوير من هنا وهناك ؟

وقد وردت في الكتب المقدسة السابقه على القرآن أوامر تعتبر



غاية في التشديد تطالب بقهر الوثنيين وبادتهم . جاء في الكتاب الخامس من الزبور قوله :

« إذا أدخلك ربك في أرض لملكها ، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك ، فقاتلهم حتي تقنيهم عن آخرهم ، ولا تعطهم عهداً ، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبداً » .

وكذلك أمر الله اسرائيل باستئصال سكان المدائن التي اختص بها بني اسرائيل دون أهلها الاصيلين .

فالإسلام لم ينفرد كما رأيت بأنه دين حربي بالمعنى الذي ذكرناه ، ولكنه انفرد ، كعادته ، بتلطيف هذه المجازر الانسانية الي آخر حد يمكن الوصول اليه بدون اخلال بسلامة الحوزة ، فوضع للحرب حدوداً ، وشرط على الغزاة شروطاً ، كلها ترمي الي احترام الدماء البشرية ، والعمل بأرقى ضروب العطف على الانسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه قد يجيء وقت تعتبر فيه الحرب من الوسائل الوحشية ، عند ما تصل الانسانية الي درجة من الرقي تسمح للشخصيين أن يحلوا منازعاتهم بالتحكيم ، تقززوا من اللجوء الي ازهاق الارواح البشرية ، فأمر ذويه بالدخول في هذا التطور الجديد ، واحترام رأى العالم فيه فقال : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

أنا في هذا المقام مضطر أن أقيم الدليل على ما أقول ، ولأدليل أوقع في النفس ، وأدل على الحق ، من شهادة رجال لا يمتنون الي الاسلام بصلة ، وانما هم مؤرخون أو علماء اجتماعيون ، يعطون الحوادث الانسانية حقها من الرواية والتحليل :



قال المسيو ( هنري دوكاستري ) أحد حكام الجزائر السابقين في كتابه (الاسلام — تأثيرات ومباحث) :

« بعد أن دان العرب للاسلام واستنارت قلوبهم بهذا الدين، برزوا في حال جديدة أمام أهل الارض كافة، هو حال المسالمة وحرية الافكار في المعاملات، ائتمارا منهم بما ورد في القرآن من الايحاء بمحاسبة الناس: بعد تلك الآيات التي كانت تنذر القبائل المارقة، كقول الكتاب: « لا اكره في الدين قد تبين الرشد من الغي ». وقوله: « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » وقوله: « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ». وقوله: « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذ خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

« هكذا كانت تعاليم النبي بعد أن دخل العرب في الاسلام، وقد اقتنى أثره فيها خلفاؤه من بعده، وذلك يضطرنا الى القول بما قاله قبلنا ( روبنسون): أن شيعة محمد وحمدهم الذين جمعوا بين محاسبة الاجانب ومحبة انتشار دينهم. هذه العاطفة هي التي دفعتهم في سبيل الفتح، وهو سبب لا حرج فيه، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الظافرة، إذ أغاروا على الشام، وانقضوا انقضاض الصواعق على أفريقيا الشمالية من البحر الاحمر الى المحيط الاطلانطيقي، ولم يتركوا أثرا للعسف في طريقهم ( تأمل )، إلا ما كان لا بد منه في كل حرب. فلم يبيدوا قط أمة أبت الاسلام » .

م قارن المسيو ( هنري دوكاستري ) بين هذا الدين والعطف



من الاسلام وبين الشدة والروح الحربية في الاديان التي تقدمته . ونحن نعذرهما في ذلك مراعاة لقانون التطور، فقد كان زمانها غير الزمان الذي نزل فيه القرآن . فنقل عن الكتاب الخامس من الزبور قوله: « اذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الايمان، فان قبلته فقد سلم كل من فيها، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها، ومتى وفقك الله لظنربها فاحطم رأس كل ذكر فيها بمجد الحسام » ثم قال المسيو ( هنرى دو كاسترى ) :

« فكان من وراء محاسنة المسامين للامم المقهورة ان انتشر الاسلام بسرعة، وعلا قدر رجاله الفاتحين، لما سبقه من ظلم براطرة المملكة الرومانية الشرقية، (وهي مسيحية)، التي أبغضها الناس وكرهوا الحياة في ظلها. هذا واذا انتقلنا من النتح الاول للاسلام الي حين استقراره، رأينا أكثر محاسنة، وأكرم معاملة لمسيحي الشرق كله . فمعارض العرب أبدا شعائر الدين المسيحي، بل بقيت رومية نفسها حرة في مراسلة الاساقفة في مختلف البلاد الاسلامية »

الي أن قال :

« وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر للمقهور، هي التي ضعفت الديانة النصرانية جدا، ثم زالت بالمرّة من شمال افريقيا . على أن الاسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره، فلم يكره على الاخذ به أحدا بالسيف ولا باللسان . بل دخل القلوب عن حب واختيار . وكان هذا من آثار ما أودع في القرآن من صفات التأثير والاخذ بالالباب »

الي أن قال :



« ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين في بلاد الاندلس حتي صاروا في حالة أهناً من التي كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانين الذين يقال لهم (الوزيجو) .

« ويقول دوزي العالم الكبير أن هذا الفتح لم يكن ضاراً بأسبانيا، وما حدث من الهرج والمرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية في تلك البلاد، وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدهم بعض الوظائف حتي كان منهم موظفون في خدمة الخلفاء، وكثير منهم تولي قيادة الجيوش مثل (سيد) . وقد تولد من هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الامة الاندلسية الي المسلمين، وحصل بينهم تزواج كثير» انتهى كلام المسعودوكاستري . نقول أن شأن الاسلام في جميع احوال الاجتماع مجيئه بأصول أرقى مما كانت عليه الاديان التي تقدمته سواء في الحرب أم في السياسة . وهذا التطور يشاهد محسوساً من المقابلة بين تاريخ المسلمين وتاريخ من سبقهم من جميع الملل .

قال الاستاذ العلامة (دراير) المدرس بجامعة نيويورك بالولايات المتحدة في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

« عامل العرب اليهود في الاندلس في ظل الحكومة الاسلامية أحسن معاملة حتي أثروا وأصبحوا ذوى مكانة عالية في الادب والفلسفة، فلما تغلب المسيحيون على الاندلس لم يطبقوا اليهود، وأخذوا يهتمونهم باختطاف أولادهم . وفي سنة ١٤٨٧ شككت لهم محكمة تفتيش فأحرقوا في سنتها الاولي ألفي يهودي، ودفنوا عدة آلاف أخرى،



وحكموا على سبعة عشر ألفاً منهم بالغرامات والسجن المؤبد . وقد  
أحصى الذين قتلتهم هذه المحكمة في مدى عشر سنين فبلغوا عشرة  
آلاف وثمانمائة وستين نسمة . وبلغ عدد الذين أمرت بتعذيبهم منهم  
سبعة وثمانين ألفاً ، وأحرقوا نسخ التوراة وكتبهم الادبية والفلسفية  
الخ الخ . ثم طردوهم من البلاد كما طردوا العرب قبلهم فهلك منهم  
ألوف مؤلفة جوعاً وعطشاً .

هذا قول عالم أمريكي من أشهر العلماء الاجتماعيين ، فالنظر بعد  
ذلك الى تعسف وجهل مؤلف كتاب (مسائل في الدين) كيف غمط حق  
المسلمين ، ووصمهم بالروح الحربية ، وبأن دينهم تنقصه المحاسنة والرقعة ،  
مع انهم أتوا العالم بأصول جديدة في هذا الباب لم تصل الى مثله  
أوروبا الى اليوم . فلم يسمع عن قوم قط انهم فضلوا قاهريهم على  
حكوماتهم الوطنية غير ما سمعناه عن الشعوب التي أخضعها العرب ،  
وذلك لسمو المبادئ التي أدخلوها على الاستعمار ، حتى جعلوه سائغاً  
لدى الشعوب التي تمنى به . وهذا لعمرى مجد عظيم لا يستطيع ألوف  
مؤلفة من المارجنين أن يهدموه ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . وكما  
تقدم عليه العهد ازداد ظهوراً ، وتلاً لاً نوراً « يريدون ليطةءوا نور  
الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره » .

في الفصل التالي فنظر في الشبهة الخامسة إن شاء الله

ألم يثبت الاسلام انه دين ترقى ؟

من أشد التهم التي يوجهها بعضهم الى الاسلام بعداً عن الحقيقة ،



ومخالفة للبدهيات التاريخية والاجتماعية، قولهم أن الاسلام لم يثبت  
 أنه دين ترق ، متظاهرين بنكران تلك الانقلابات الضخام التي أوجدها  
 في الاجتماع والعلم والفنون والسياسة، مما لم يجسر على نكرانها مؤرخ  
 من أى ناحية كانت ، ولم يجرؤ على اغفال ذكرها عالم اجتماعى من أى  
 مذهب كان ، لاشتراك العالم كله في التأثير بها على أقدار شتى . فاذا  
 ساغ لكاتب أن ينكر شيئاً في الاسلام، فلا يصح له أن ينكر هذا الاثر  
 الجلل الذى لهذا الدين ، لأقول في حماية العلوم والفنون ولكنى  
 أقول في حفظ تراث العالم الانسانى جميعه منها ، بعد ما كادت تلعب  
 بها أيدي الاهمال ، ثم الذهاب بها الي حد بعيد من الترقى، والقيام  
 بنشرها في الخافقين، حتى أن إبلا ل أوربا من داء التحجر الشنيع كان  
 بسبب ما نشره الاسلام في أرجائها من أشعتها المحيية . وكيف لا يكون  
 ما أوجده الاسلام انقلابات حقيقية ، وهو قد أشاد بذكر العلم حتى  
 جعله مناط السعادة في الدنيا والآخرة فقال تعالى: «هل يستوي الذين  
 يعلمون والذين لا يعلمون» ؟ وقال : «وتلك الامثال نضربها للناس  
 وما يعقلها الا العالمون» بكسر اللام. وقال «وما أو تيمم من العلم الا قليلا» .  
 وقال : « وقل رب زدنى علما » .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: « طلب العلم فريضة على كل

مسلم ومسلمة . وقال: «خذ الحكمه ولا يضرك من أى وعاء خرجت» .

وقال: «من علم علما فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة» .

الى آيات وأحاديث لا ينالها العد ، فهل من عجب بعدها اذا اندفع

المسلمون وراء تحصيل العلم اندفاعا لا يوجد في تاريخ الجماعات ما يشبهه



حتى أصبحت عواصمهم بعد ربح من الزمن عواصم للعلوم والفنون ،  
ورجالهم أئمة للأراء والمذاهب .

يحسن بي بعد هذا أن أستشهد بثقات المؤرخين ، والعلماء الاجتماعيين  
من الاوروبيين والامريكيين ، ليكون الدليل أشد وقعاً وأدعى  
للتسليم فأقول :

قال العلامة (دراير) المدرس في جامعة نيويورك في كتابه ( المنازعة  
بين العلم والدين):

« ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية  
سنة ( ٦٣٨ ) ميلادية أى بعد موت محمد بست سنين ، ولم يمض عليهم  
بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية  
وقدروها قدرها الصحيح .

إلى أن قال : « ولما ولي الخلافة أبو جعفر المنصور من سنة  
( ٧٥٣ الى ٧٧٥ ) م ، نقل عاصمة الملك الى بغداد وجعلها عاصمة  
نخمة ، فلم يأل جهداً في بذل الوسع في نشر العلوم الملكية ، وتأسيس  
مدارس الطب والشريعة . ولما تولى حفيده هرون الرشيد سنة  
( ٧٨٦ ) م ، اتبع أثر جده في هذه الفتوحات العلمية ، وأمر باضافة  
مدرسة الى كل مسجد في جميع أرجاء ملكه . ولكن عصر العلم  
الزاهر في القارة الاسيوية لم يشرق الا في خلافة المأمون الذي تولى  
الخلافة من سنة ( ٨١٣ الى ٨٣٢ ) م ، فانه جعل بغداد العاصمة  
العلمية العظمى ، وجمع اليها كتباً لا تحصى ، وقرب اليه العلماء ، وبالغ  
في الحفاوة بهم .



« هذا المركز الذى اكتسبه العرب وهذا الذوق السليم فى العلم استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت مملكتهم الى ثلاثة أقسام . فان العباسيين فى آسيا والفاطميين فى مصر والامويين فى اسبانيا لم يكونوا متناظرين متنافسين على الحكومة فقط ، بل كانوا كذلك فى الآداب والعلوم أيضاً .

« ذاق العرب فى الفنون الادبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة ويصقل الذهن وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الامم كلها مجتمعة . أما فى العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئاً من الاسلوب الذى توخوه فى المباحث وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الاوربيين ، فانهم قد تحققوا أن الاسلوب العقلى النظرى لا يؤدى الى التقدم ، وان الامل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها ، ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الاسلوب التجريبي والدستور العملى الحسى ، وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق . وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والايديروستاتيك ( علم توازن السوائل وضغطها على جدران أوعيتها ) ونظريات الضوء والابصار انهم قد اهتموا الى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات .

« هذا هو الذى قاد العرب الى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد والاسالة ( اسالة الجوامد ) والتصفية الخ ، وهذا بعينه أيضاً هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعامة



والاسطرلابات ( هي آلات لقياس ابعاد الكواكب ) ، وهو أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته ، وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الاوزان النوعية للاجسام والازياج الفلكية ( هي جداول تعرف منها حركات الكواكب ) مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند ، وهو أيضاً الذى أوجد لهم هذا الترقي الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات ، وهو أيضا الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الارقام الهندية ، هذا هو ثمرة تفضيلهم لاسلوب ارسطو الاستدلالي على مقالات افلاطون الاستنتاجية .

« ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لاجل أن يتصلوا الى تكوين المكاتب التى تكلمت عنها . الى أن قال : « وقد اشتملت مكتبة خلفاء الاندلس على ستمائة الف مجلد ، وكانت قائمة اسمائها وحدها واقعة فى أربعة وأربعين مجلداً . وغير هذا فقد كان بالاندلس سبعون مكتبة عامة وكثير من المكتبات الخاصة »  
الى أن قال درابر نفسه :

« أما المؤلفات الحديثة فقد كان من عادة أساتذة الجامعة أن يؤلفوا كتباً فى الفروع العلمية التى تطلب منهم . وكان لكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه .

« ولقد كتبوا فى كل فن وفى كل علم كالتاريخ والشريعة والسياسة والفلسفة وتراجم الرجال وتراجم الخيول والابل ، وكل هذه المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة ولا حرج . وما يعلم من المراقبة على الكتب



اللاهوتية فقد حدث فيما بعد هذا التاريخ . وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات التي تصلح لان تتخذ مادة كثيرة جداً في الجغرافيا والاحصاءات والطب والتاريخ وقواميس اللغة . وكان لديهم دائرة معارف علمية ألفها محمد أبو عبد الله . وكان للعرب ذوق دقيق في صنع الورق النظيف الناصع البياض ، وفي اعطاء المداد الالوان المختلفة ، وفي زخرفة وجوه الكتب بتشبيك تلك الالوان المختلفة من المداد، والابداع في تنميقها وتذهيبها على صور شتى .

« كان الملك الاسلامى العربى يعص بالمدارس والمكتبات، وكانت بلاد المغول والتتار ومراكش والاندلس حاصلة على عدد عديد منها . وكان في طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة، التي فاقت المملكة الرومانية كثيراً، مرصد في سمرقند لرصد الكواكب وكان يقابله في الطرف الآخر مرصد جيراك في الاندلس .

« ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمية، لخرجنا عن حدود وهذا الكتاب، فانهم قد رفقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً (تأمل)، واوجدوا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم . ثم قال :

« الفلكيون من العرب قد اهتموا أيضاً بتحسين آلات الارصاد وتمهيدها وبحساب الازمنة بالساعات المختلفة الاشكال، والساعات المائية، والسطوح المدرجة الشمسية . وهم أول من استعمل البندول ( الرقاص ) لهذا الغرض .

« أما في عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء وبعضاً



من محلاتها الشهيرة حمض الكبريتيك وحمض النتريك والكحول .  
 « استخدم العرب علم الكيمياء في الطب، لانهم أول من نشر  
 علم تحضير العلاجات والاقرباذينات واستخراج الجواهر المعدنية .  
 « أما في علم الميكانيكا فانهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط  
 الاجسام . وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة .  
 « أما في الايدروستاتيك فقد كانوا أول من عمل الجداول المبينة  
 لضروب الاوزان النوعية ، وكتبوا أبحاثا عن الاجسام السابحة  
 والغائصة تحت الماء .

« أما في نظريات الضوء والابصار فقد غيروا الرأى اليونانى الذى  
 مقتضاه أن الابصار يحصل بوصول شعاع من البصر الى الجسم المرئى،  
 وقالوا بعكس ذلك أى أن الابصار يحصل بوصول شعاع من المرئى  
 الى العين ، وكانوا يعرفون نظريات انعكاس الاشعة وانكسارها،  
 وقد اكتشف الحسن الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره  
 فى الجو ، وأثبت بذلك اننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهر حقيقة  
 فى الافق، وكذلك نراها فى الغرب بعد أن يغيبا بقليل .

« ان نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى  
 نالته الصنائع فى عصرهم، فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب  
 الري والتسميد وتربية الحيوانات وسن النظمات الزراعية الحكيمة،  
 وادخال زراعة الارز والسكر والبن ، وقد انتشرت المعامل والصنائع  
 لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن . وكانوا  
 يذيبون المعادن ويجرون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من



صنعها وسبكها .

«واننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر ، من ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً، كان يدرس في مدارسهم . وقد كانوا ذهبوا منه الى مدى أبعد مما وصلنا اليه، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضاً » انتهى كلام ( درابر ) .  
وقال العلامة الدكتور ( جوستاف لوبون ) الفرنسي في كتابه ( تمدن العرب ) :

«العرب مع ولوعهم بالابحاث النظرية لم يهتموا بتطبيقها على الصنائع . فقد أ كسبت علومهم لصنائعهم جودة عظيمة جداً . واننا وان كنا لم نزل نجهد أكثر الطرائق التي سلكوها لذلك ، إلا أننا نعرف نتائجها وآثارها ، فنعرف مثلاً انهم احتفروا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزرنيق والحديد والذهب ، وانهم برعوا جداً في الصباغة ومهروا في صقل الفولاذ مهارة بعيدة المدى ، وانهم في كثير من فنون الصنائع قد برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن ( تأمل ) .

وقال العلامة ( جيبون ) المؤرخ الانجائزي المشهور عند ذكره الحماية والرعاية التي بذلها المسلمون للعلوم :

« كان من أثر تنشيط الامراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمي في المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . ويروي عن وزير ل احد السلاطين أنه تبرع بمائتي ألف دينار لتأسيس



كلية علمية في بغداد ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنويا، وكان عدد طلبتها ستة آلاف لافرق فيهم بين غني وفقير « الخ الخ .  
وبعد فأقول لو أردت نقل ما يقع تحت يدي من أقوال المؤرخين والعلماء الاجتماعيين في هذا الباب لملاّت مجلدات ضخمة، فلا أكتف بما قدمت فانه يكفي في دحض قوهم أن الاسلام لم يثبت انه دين ترق .

### المرأة والرق في الاسلام

قال صاحب كتاب (مسائل في الدين) في معرض انتقاده الاسلام انه يجيز الرق وتعدد الزوجات ويسهل الطلاق للرجل، وان ما تعانيه المرأة المسلمة من حالتها السيئة يعود اليه ، فترد على هذه الشبهات على حسب ترتيبها فنقول :

وجد الاسترقاق منذ وجد الانسان ، فان القوى يغلب الضعيف ويستعبده . وقد شوهد الاسترقاق لدى بعض طوائف الحيوانات وأخصها النمل، فان بعض أنواعه يأسر البعض الآخر عقب إغاراته عليه ويستخدمه .

وقد كان المصريون الاقدمون والبابليون والبراهمة الهنديون والنفرس يتخذون الرقيق ويعاملونه بقسوة .  
وكان اليونانيون يتخذونه أيضاً ، وقد أقره أرسطر وأفلاطون وغيرهما من كبار الفلاسفة الاغريق الاولين .

أما الرومانيون فقد توسعوا في الاسترقاق الى حد بعيد . واتيقت جميع الامم القديمة على معاملة الارقاء بأشد ضروب القسوة، وعلى الحصول



على الرقيق بكل الوسائل الممكنة لافرق بين مشروع وغير مشروع .  
وقد أقر الاسرائيليون الاسترقاق على ما كان عليه ولم يتناولوه  
بأقل تغيير .

ولما جاءت الديانة المسيحية أقرت الاسترقاق وعدته شرعياً . جاء  
في دائرة معارف القرن التاسع عشر في صفحة ٨٦٥ من المجلد السابع :  
« الديانة المسيحية لم تستنكر الاسترقاق في ذاته ، ولم تعمل  
على إبطاله ، فان شرعيته لم تكن قط لديهم موضعاً للبحث » انتهى .  
ولدينا نصوص عن بعض القديسين يشيرون فيها على العبيد بوجوب  
اطاعة ساداتهم والصبر على حالاتهم ، ويذكرون لهم بأن استرقاقهم  
مستند الي اصول إلهية .

وقد ذكر العلامة درابر الاستاذ بجامعة نيويورك بأمرىكا أن آباء  
الكنيسة كانوا يكثررون الكونتات في اقتناء الارقاء .  
وأول قانون صدر لتخفيف ويلات الاسترقاق كان قانون  
الامبراطور بترونيا الروماني ، وهو يحرم على السادة الزام أرقائهم بمقاتلة  
الوحوش إلا باذن من القاضي .

وفي عهد الامبراطور انتونان الروماني صدر أمر يقضى بأن من  
يقتل عبده يعاقب بغرامة .

ثم صدر قانون على عهد الامبراطور كلوبوس يعتبر فيه قاتل  
العبد مرتكباً لجناية القتل ومات هذا القانون بموته .

وأول قانون صدر في شأنهم بعد القرون الوسطى كان سنة ( ١٦٨٥ )  
وقد نص فيه على انه اذا اعتدى أحد الزنوج بأقل اكرامه على سيده



أو أحد الاحرار أو ارتكب أخف السرقات فإن جزاءه القتل .  
وقد أصدر الانجليز في ذلك العهد قانوناً بأن العبد إذا أبق واستمر  
في ابقه أكثر من ستة أشهر فجزاؤه القتل .

وصدر في عهد الملك لويز الرابع عشر الفرنسي أي في القرن الثامن  
عشر قانون جاء فيه هذه العبارة : « ان من توفية حق النظام أن  
لا تنازل عن احتقار الجنس الاسود مهما كانت منزلته ، وقد حصل  
التصميم على ابقاء الحكم الاعتباري الذي يحرم ذوى الالوان وذريتهم  
من مزايا الجنس الابيض الى ابد الابد » .

هذا كله كان حاصله في أوروبا وأمريكا حتى سنة (١٧٨٠) ثم استمر  
الى سنة (١٨٨٠) حيث قامت انجلترا بحملتها لابطال الاسترقاق .  
أما الاسلام فقد كان مجيئه عهداً ميموناً للارقاء كما كان عهداً  
ميموناً للعالم كله . فهو لم يكتف بالتوصية بهم والتلطف في معاملتهم ،  
ولكنه ساوهم بالاحرار ، وقرر أن من قتل عبداً قتل به ، وجعل للارقاء  
حقوقاً في مستوى حقوق الاحرار .

صدور مثل هذا التشريع في جزيرة العرب ، وناهيك بتغلغلها  
في الاسترقاق وامتهان الارقاء يعتبر من أدل الدلائل على مساوية الاسلام .  
فلا القرن الذي أنزل فيه ، ولا إعادة العرب في ذلك العهد ، ولا الرأي  
العالمي العام في الاستخفاف بالعبيد ، كان مما يسهل صدور نصوص  
في شريعة كالشريعة الاسلامية تخالف هذا الاجماع المحبوك الاطراف  
وتهب للاسرى الذين ليس لهم من يطالب بحقوقهم الضائعة حقوقاً  
لم يمثلها مشرع الي اليوم !



اعترف الاسلام قبل كل شيء بأن الابيض والاسود سواء، كما أن  
العربي والاعجمي سواء كذلك أمام القانون، فقال عليه الصلاة والسلام:  
« لا فضل لعربي على أعجمي ولا لابيض على اسود الا بالتقوى أو بعمل  
صالح »، فهدم بهذا الاصل الاصيل حوائل الالوان التي كانت تحول  
دون أقرار العدل في نصابه في جميع البلدان .

ثم قرر للارقاء الحقوق نفسها التي للاحرار، بل جعل للارقاء —  
وهو أمر مدهش ودال على غاية التاطف بالضعفاء — مزايا ليست  
للاحرار، وذلك أن العبد اذا ارتكب جريمة فعليه نصف ما على الحر  
من العقاب !

نعم أقر الاسلام الاسترقاق وهو بذلك قد سلك طريقته في أخذ  
الامور الاجتماعية بسنة التدرج، لانه كان لا يستطيع ابطال أمر  
أجمعت عليه الامم كافة كأساس من أسس العمران، وارتضته جميع  
الاديان، وكان متأصلا في الامة العربية الى حد بعيد، ولكنه حيال  
هذا الاقرار عمد الى تأصيل أصول تعتبر مهيئة لالغائه بدون حرج،  
حين يقتضى نظام الاجتماع ذلك . وهي ( أولا ) ايصاء بهم في مواطن  
كثيرة من الكتاب والسنة، فقال تعالى: « وبالوالدين احسانا، الي  
قوله: وماملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » .  
وقد بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الايصاء بهم حتى قال  
وهو يجود بنفسه: « الصلاة وماملكت أيمانكم » .

( ثانيا ) : مساواتهم بالاحرار، ورفع ما بينهم من التمايز في الحقوق،  
وحكمه بإخوتهم الانسانية لساداتهم، فقال عليه الصلاة والسلام:



« اخوانكم خولكم ( أى ان أرقاءكم الذين يتخولونكم بالخدمة اخوانكم ) جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس » :

وبما أنهم أصبحوا للاحرار اخوانا بحكم هذه الشريعة الالهية ، فلا يصح أن يدعوا السيد رقيقه عبداً ولا رقيقته أمة، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يقل أحدكم عبدى ولا أمتي ولكن ليقل فتاى وفتاى وغلामى » .

وزاد النبي صلى الله عليه وسلم الارقاء إيضاء بهم فحسن للناس تعليمهم وتزويجهم فقال : « من كانت له جارية فعلمها وأحسن اليها وزوجها كان له أجران » .

سرت هذه التعاليم في المساميين الاولين، وجرى عليها النبي صلى الله عليه وسلم بالعمل ، فولي بلالا وأصله رقيق حبشى المدينة، وفيها وجوه العرب وساداتهم . وولي مولاه أسامة بن زيد قيادة الجيش وفيه ابو بكر وعمر .

ورأى أبوهريرة رجلا على دابته وغلामه يسعى خلفه فقال له : « احملة خلفك يا عبد الله، فانما هو أخوك وروحه مثل روحك » .

ولما ذهب أمير المؤمنين عمر الى الشام ليبرم معاهدة مع أهل دمشق استصحب رقيقا له، فكان يركب هو مرحلة، ثم ينزل ويأمر رقيقه بالركوب ويمشى خلفه . ولما وصل الى دمشق كان الدور في الركوب لغلामه فقابل الناس على هذه الصورة .

وقد أرسل أبو عبيدة القائد العام لجيش أبي بكر في الشام جنوداً



لفتح مدينة وجعل قائدهم زنجياً، تأسيساً بما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعث عمرو بن العاص الى المقوقس، عظيم القبط في مصر، وفداً ليتخبر معه في أمر الصلح على رأسه عبادة بن الصامت وهو زنجى اسود، فلما وقعت عين كبير القبط عليه، قال نحواً عنى هذا الاسود وقدموا غيره . فقالوا جميعاً : « ان هذا أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا » .

وقد وصل الارقاء لدى المسلمين الى أعلى المناصب فكانوا وزراء للدولة وتولوا الملك أيضاً .

علمنا كل هذا، وهو أغرب ما نرويه في تاريخ الاسترقاق، فهل عمل الاسلام على حصر دائرته، وهياً العوامل لابطاله، حين يصبح في عرف الاجتماع أمراً مستنكراً ؟

نعم، فانه حصره في دائرة الحروب المشروعة، وعلق أمره بولي الامر، ومعنى هذا أن لا استرقاق إلا في حرب . أما ما يجتلب بوساطة النخاسين من طريق الاختطاف والتصيد، فلا يميزه الشرع الاسلامى ولا يعتبره . حتى ان أحد العلماء العاملين أراد في القرون الاخيرة أن يشتري عبداً فأعوزته، لعدم انطباق ماله من نصوص الشريعة على من قدموا اليه بدعوى أنهم أرقاء وما هم الا مختطفين من أحضان أهليهم .

وقد جعل الاسلام أمر الاسترقاق في يد حاكم المسلمين، تدرعاً لبطلانه حين تستعد الشعوب لذلك . فان للحاكم أن يتخذ الاسرى، وأن يقبل منهم الفدية، وأن يمن عليهم بالحرية بعد أن تضع الحرب



أوزارها . فليس هنالك تحميم في استرقاقهم فان وصل الناس الي مستوى من الشعور يستنكرون فيه الاسترقاق فما على حاكم المسلمين إلا الامتناع عن اجازته، فيبطل كما حصل منذ أن عمت الدعوة بالكف عنه، فان المسلمين قابلوا هذه الدعوة بقبول حسن ولم يروا فيها منافاة للشريعة، شأنهم في كل تجديد يراد به خير الانسانية .

هذا كله يعتبر من الانقلابات التشريعية التي لم تطف بخيال أكبر المشترعين، ولا أجل الفلاسفة في عصر من العصور . فهل يصح بمؤلف أن يقاب هذه الحقائق الضخمة فيصم الدين الذي مصدره هذا النور الباهر بانه كان يؤيد الاسترقاق ويعمل على نشره ؟ وقد أريتك من سيرته حياله ما يصغر في عينيك كل عظيم في العالم الانساني لم يفكر في مثل ما فكر فيه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وحده ؟

### الطلاق وحقوق النساء في الاسلام

ليس في تاريخ التطورات التشريعية ما هو أعجب مما أحدثته الاسلام في الشؤون النسوية، فقد أوجد في حالاتها انقلاباً لا يزال بينه وبين أرقى الامم بون بعيد .

ماذا كانت حالة المرأة في القرن السابع للميلاد وهو العهد الذي بعث فيه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ؟

كانت المرأة مستعبدة في كل مكان ، وليت ذلك كان بالمعنى المعروف للعالم اليوم ، ولكنها كانت ضحية للغطسة والقسوة الي أبعد الحدود .



فلا أقول انها كانت محرومة من جميع الحقوق الطبيعية، وكانت مملوكة لزوجها الخ الخ، فهذه كلها عبارات لا تؤدى ما كانت عليه المرأة في أوروبا وفي العالم كله . انها إذ ذاك كانت أقل من أن يؤتى بجانب اسمها بكلمة حقوق ولو في معرض النفي، لانها كانت معتبرة جسداً لا روح له !

نعم انه قد اجتمع مجمع كبير في رومية وبحث في شؤون المرأة فقرر انها كائن لا تنفس له، وانها لن ترث الحياة الاخروية لهذه العلة ، وانها رجس يجب أن لا تأكل اللحم، وأن لا تضحك، بل ولا أن تتكلم، وعليها أن تمضى جميع أوقاتها في الصلاة والعبادة والخدمة .

ولاجل أن يمنعوها الكلام جعلوا على فمها قفلاً كانوا يسمونه موزليير (Muselière)، فكانت المرأة من أعلى الاسر وادناها تسير في الطرقات وفي فمها قفل ، وتروح وتغدو في دارها وفي فمها قفل ، قفل من حديد ! وهذا غير العقوبات البدنية التي كانت تعرض لها المرأة باعتبار انها اداة الاغواء، وآلة التسويل، يستخدمها الشيطان لافساد القلوب، (راجع المجلد الحادى عشر من مجلة المجلات الفرنسية) . أما في بلاد العرب فكانت المرأة في عداد البهائم، تورث مع ماشية زوجها وتصبح ملكا لورثته ، وكانت تجبر على الفسق والتهتك، لتزيد في ثروة المسيطر عليها، وكان للرجل أن يختار من النساء العدد الذي يرضاه لنفسه بلا تحديد .

وهل كان لها حق من الحقوق المعروفة الآن ؟ لا ، حتى ولا في وراثه أبويها ، وهل ترث بهيمة مجردة من الروح ؟



نعم رويت عن العرب أشعار في الغزل والتشبيب ، ولكن هذا كان لا يعدو المناطق البهيمية من النفس ، وقد كان العربي يتغنى بفضائل ناقته وحصانه، وهذا ما كان ليمنعه أن يطلق سراجهما ليموتا جوعا متي بلغا الدور الذي لا ينفعانه فيه .

جاء الاسلام والعالم على ما وصفت لك، فكان مجيئه عهد انقلاب في تاريخ المرأة لم يسبق له مثيل في أطوار أمة من الأمم .

نعم أدرك نساء روميه عهداً في أواخر عهدها بالوجود يحتمل أن يعده بعضهم عهداً ذهبياً لهم ، والواقع أنه كان من أتعس العهود عليهن وعلى دولتهن . فقد كانت فسدت نفوس الرومانيين في ذلك العهد بطراً من سعة السلطان الذي أوتوه، الى حد أنهم أصبحوا لا يحامون فيه بغير المتع الجسدية، واللذات البهيمية ، فأطاقوا للنساء العنان لا ليكن نساء كاملات يقمن على أحكم الاصول ، ويربين أولادهن على أرقى المبادئ ، لا ، ولكن ليكن آلات شهوات، وأدوات بدخ وخلاعة . قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر :

« في الايام الاولى من الجمهورية الرومانية كانت المرأة ملازمة بيتها تغزل فيه الصوف ، ولكن البدخ تسرب الي رومية شيئاً فشيئاً حتي قام ( كاتون ) ينذر بالخطر المحقق الذي سيلتهم كل شيء . وبعد ذلك بقليل لم يقف البدخ والترف عند حد »

ثم أردفت دائرة المعارف ذلك بقولها : « ان كاتون لم ينجح في دفاعه عن ذلك القانون ، ( القانون المانع لتهتك المرأة ) ، ولكن انذاراته تحققت تماما » ، أي أن الدولة الرومانية زالت من الوجود



وانقلبت حالة المرأة فدخلت في دور من الاسر لازمها نحواً من ألف سنة حتي ولد العلم فعمل على انقاذها منه يسيراً يسيراً حتي تم لها ما يراها الناس عليه اليوم.

ولكن الاسلام أحدث انقلاباً في حالة النساء لا من ناحية اتخاذهن آلات للشهوات ، ولكن من ناحية احياء حقوقهن الطبيعية ، واحلاهن من المجتمع في المكان اللائق بهن ، حيث تظهر خصائصهن وتشرق مزاياهن ، ليتم للمجتمع جميع عوامل التكامل والوصول الي أبعد غايات الترقيات الاجتماعية . فأصل لبوغ هذه الغاية أصولاً جعلها في مستوى العقائد الاولية . منها أن المرأة والرجل عضوان متكاملان خلقا ليؤلفا الاسرة ، ويعيشا على أكمل حال من التواد والتعاطف ، فقال تعالي : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة »

وبما أن هذا الجنس من أنفسنا أي منا كان جديراً أن يكون له مالنا وعليه ما علينا : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى فلننجينها حياة طيبة ، ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

نعم وقد راعى الشرع الاسلامي ذلك فجعل لهن حقاً في الميراث ، ووهبهن جميع الحقوق المدنية التي للرجال ، حتي حق التملك والتعامل على ضروبه كافة ، وفتح لهن جميع باحات العمل من تجارة وصناعة الخ ولم يوصد في وجوههن باباً من أبواب الحياة ، غير باب التبرج والتهتك . وليس في العالم من يلومه على ذلك ، ولانظن أنه يأتي جيل يلومه عليه ، مهما توسعت الانسانية في محابة المرأة .



اذا كانت الديانة الاسلامية اعتبرت المرأة انساناً في مستوى الرجل، فهل أباحت لها ترقية مواهبها العقلية، أم وضعت أمامها حجاباً لا تتعداه، كما فعل العالم كله الى ما قبل قرن واحد فقط؟ أليست كانت الامم تحرم عليها دخول الجامعات، وتوصد في وجهها باب التعليم العالي في كل مكان؟

نعم أباحت الشريعة الاسلامية للمرأة التعلم، بل جعلته فريضة عليها، فقال صلى الله عليه وسلم: « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »، بهذا النص صار الاسلام أول من قرر تعميم التعليم بين الجنسين على السواء، وكان التعليم قبله محصوراً في طبقة الاغنياء والمستبدين بالشعوب، ولم تجعل الشريعة له حداً، فللمرأة أن تبلغ منه الحد الذي تريده، وقد وصل بعض النساء الى اعلى الدرجات فيه. أليس من المدهش أن يكون الاسلام قد أباح للمرأة، ومتى وصلت الى حد بعيد من العلم، أن تكون قاضية ومنفتحة، وأن تتولي التعليم العالي؟ نعم كل هذا كان في الاسلام، وأشد منه موجباً للمدهش، انه أمر بأن تشهد المسلمات الصلوات في المساجد، وشؤون المسلمين العامة التي كانوا يجتمعون فيها بدعوة أمرائهم لتقرير التدابير الضرورية، حيال أي طارئ من الطوارئ الاجتماعية، أولاً خذ رأي الناس في سن سنة جديدة للمجتمع. لذلك كن يحضرن في تلك المجمع، وقد حدث مرة أن رأى أمير المؤمنين عمر أن يستشير الناس في تحديد صداق النساء للحيولة دون المغالاة فيه. فلما أفضى برأيه الى الناس وهو على المنبر، تصدت له امرأة وناقشته فيه فعدل عن رأيه الى رأيها.



أفلا يمكن أن تعد هذه سابقة في الاسلام اذا دعانا داعي التطور الاجتماعي في يوم من الايام أن نمنح نساءنا حقوق الانتخاب والحصول على النيابة في الهيئات التشريعية ؟

ومما اختص به الاسلام الذهاب في احترام الحقوق الطبيعية للمرأة الي حدود لم تدر في خيال مشرع مدني الي اليوم .

فلاسلام لم يكلف المرأة، وهي زوجة، بأى حق تؤديه للرجل غير حفظ عرضه، وطاعته في المعروف باعتبار انه الرئيس الطبيعي للأسرة . فم تكلفها الشريعة الاسلامية بخدمته، ولا بخدمة أولادها، ولا بخدمة نفسها أيضاً ، بل ولا بارضاع أولادها ولا حضانتهم ، ولكن الزوج ملزم بأن يوجد لها من يخدمها ، فان كان فقيراً تولى هو القيام بحاجاتها . فان ولد لها طفل فعليه أن يستأجر له مرضعاً وحاضنة ، فان قبلت والدته أن ترضعه وتحتضنه كان لها على ذلك أجران اجر الارضاع وأجر الحضانة ، إلا اذا كان الزوج فقيراً فيتسامح له الشرع في أمر هذا الحق بضرورة الحال .

والمرأة المسلمة بتزوجها لا تفقد من استقلالها المالي شيئاً، فتظل على حريتها في التصرف بما لها وأملاكها، وليس عليها أن تتقيد برأى زوجها في معاملاتها الاقتصادية، فتبيع أملاكها أو تؤجرها أو ترهنها لا تصدر في ذلك كله إلا عن إرادتها الشخصية .

هذا الحق لم تنله المرأة الغربية الي اليوم ، فانها بزواجها تقع، من ناحية تصرفاتها الاقتصادية تحت وصاية زوجها، فلا تستطيع أن تباع أو تشتري أو ترهن شيئاً من أملاكها إلا بتصديق زوجها، فان القانون



يهبه حقاً على أملاكها ليس لأبويها ولا لأحد أقربائها ، ولا شك في أن هذا بقية من بتايا أسر المرأة في الأزمنة المظلمة .

هذه الحقوق الممنوحة للمرأة المسلمة لم تحلم بها أية فلسفة الي اليوم ، وقد منحها الإسلام للمرأة لأجزافاً ولكن لرفع نير العبودية عنها، وهو النير الذي لا تزال تحمله جميع نساء العالم الي اليوم ، وبقصد وضع حقوقها الطبيعية موضعاً شرعياً لا يمكن نقله ولا تأويله . فلو كان الإسلام يعتبر المرأة رقيقة لزوجهها، أو لو كان لا يعتمد بحقوقها من ناحية عملية، لما قرر في أمرها هذه الاصول التي لا يوجد في العالم الاسلامي من ينكرها أو يتأول فيها ، وقد أجمعت المذاهب الفقهية عليها اجماعاً لا يتطرق اليه الضعف من أية ناحية .

أن الفيلسوف ليتولاه العجب، وتأخذ منه الحيرة كل مأخذ، اذا نظر الي هذه الحقوق النسوية نظرة تشريعية واجتماعية محضه، وعلم أن مصدرها بلاد العرب ، تلك البلاد التي كانت تتمهن فيها المرأة امتهاً لا مذهب بعده . فلا حالة المرأة في العالم كله، ولا حالتها في البلاد التي صدرت منها هذه الشريعة، كانت في القرن الذي أنزل فيه الإسلام توحى الي أي مشرع، حتى في الامم التي دخلت في أرقى الادوار التشريعية، اصدار مثل هذه الاصول التي لم تصل اليها المرأة من أية نخلة كانت الي عهدنا هذا .

لا جرم أن هذا من أدل دلائل الوحي الالهي ، لان العقل المجرد لا يستطيع أن يتعدى المناطق التي رسمتها له الحوادث، وحدثها الاحوال المحيطة به .



بقيت مسألتنا الطلاق وتعدد الزوجات ندخرهما للفصل التالي  
ان شاء الله .

### الطلاق وتعدد الزوجات في الاسلام

الاسلام لم يوجد الطلاق ولكنه جاء فألنى العالم كله عليه منذ  
القدم، الأمة أو أمتين فقط . فكان الرجل اذا غضب على احدى  
نساءه طردها من داره لتذهب حيث تشاء دون أن يجد نفسه مطالباً  
حيالها بأى حق .

ولما نبه ذكر الامة اليونانية، وازدهرت حضارتها، كان الطلاق  
شائعاً فيها بلا قيد ولا شرط .

وكان الطلاق لدى الرومانيين معتبراً من كيان الزواج نفسه، حتى  
أن القضاة كانوا يحكمون ببطلان الزواج إن اشترط كلا الطرفين عدم  
الطلاق فيه .

وكان الزواج الدينى لدى الاجيال الاولى للرومانيين يحرم الطلاق  
ولكنه فى مقابل ذلك كان يمنح الزوج على امرأته سلطاناً لاحدله،  
فبيح له أن يقتلها ان فجرت، أو إن قتلت بعض اولادها، أو قلدت مفاتيح  
الدار، أو أدمنت الخمر . ثم رجعت دياتهم فأباح الطلاق كما كان مباحاً  
أمام القانون المدنى .

لما جاءت الديانة الموسوية حسنت من حالة الزوجة ولكنها أباحت  
الطلاق وتوسعت فى اباحتها ، وكان الزوج يجبر شرعاً على أن يطلق امرأته  
ان ثبتت عليها جريمة الفسق، حتى ولو غفر لها هو تلك الجريمة . وكان



القانون يجبره أيضا على أن يطلق امرأته ان لبثت معه عشر سنين ولم تأت به بذرية ، حتي ولو كان يؤثر البقاء معها .  
أما المسيحية فقررت عدم جواز الطلاق الا بسبب ثبوت جريمة الفسق ، أو طلبا للنسل في حالة ثبوت العقم .

فأما شرع الاسلام أقر امكان الطلاق مع التكريه فيه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان أبغض الحلال الى الله الطلاق » . وهو انما أباحه اذا وصل الزوجان الى درجة من التباعد لا تمكن معها المعاشرة ، راميا بذلك الى ضرورة سيادة التواد والتراحم في الاسرة ، معترفا بأن في الحياة منازعات لا يحسمها غير النزاع . ولكنه في حالة الطلاق حاط المرأة بكل ما يعقل من ضروب الحماية ، فجعل من واجبات الزوج أن يسرحها باحسان ، وأن لا يرهقها أو يساها أمتعتها ، وعليه ان يوفيه بما يؤخر صداقها ، وعليه أن ينفق عليها حتى تنقضي عدتها ، ولا يكون لديها مانع من التزوج بسواه . فان ادعت انها لم تر الطمث كان على الزوج أن ينفق عليها حتى تعترف بأنها رأته ، ولولبثت على انكارها سنين ، كما هو مؤدى مذهب أبي حنيفة . وهذا ضرب من ضروب الحماية للمرأة ، لم يسبق له مثيل في ملة من الملل ، والغرض منه كبح الرعونة الرجولية عن الاستخفاف بأمر الزوجية ، واللعب باباحة الطلاق على ما يميله الهوى .

وقد أوصى الاسلام قبل ايقاع الطلاق أن يلجأ الزوجان الى التحكيم لاصلاح ذات البين ، فان لم يتسن للحكمين التوفيق بينهما عمدا الى الطلاق باعتبار انه المخرج الوحيد من الحرج بين الزوجين .



فالطلاق في الاسلام كما ترى مضيق عليه من الوجهة الشرعية ،  
ناهيك أن آتيه يعتبر في نظر الناس آتياً لا بغض الحلال الى الله .  
وإذا كان الاسلام قد اعترف بأن الطلاق أبغض الحلال، فهلا كان  
حرمه كما حرمته الديانة المسيحية قبله ؟

لا ؟ فان تحريمه ينمى الى حرج شديد بين نفسين خلقتا لتعيشا  
مهنتين غير منغصتين . والنزاع في الحياة الزوجية مجلبة لكل ضروب  
الشرور ، وموحى الاسلام كان يعلم بأن الامم المحرمة له بعد أن تبلغ  
رشدتها ستضطر الى اباحتها، غير معتدة بأوامر دينها، وهو الامر الذي  
حدث فان أكثر الامم عمدت الى اباحتها في القرن التاسع عشر ، ومنذ  
ذلك الحين أخذ الطلاق في الانتشار الى حد لا يكاد يتصور، وخاصة  
بالولايات المتحدة الامريكية، ولم يدر في خلد أحد من المصلحين هنالك  
ولا في أوروبا بأن يسعى في ابطاله، لان الحياة المدنية لا يمكن أن تستقيم بدونه .  
فالا سلام باباحتها للطلاق والحالة هذه، وهو دين عملي أساسه مماشاة  
التطورات البشرية ومسايرة الانقلابات المدنية لتعديل مزاجها ،  
وتلطيف خشونتها ، لم يرد أن يكون ديناً خياليا يقصره على المعابد،  
ويكون بين الناس وبين العمل به عقبات لا يمكن تذليلها .

هنا يمكن أن يقول قائل كيف يتفق أن يكون الاسلام قد أسبغ  
على المرأة حقوقاً لم تنلها امرأة غيرها في العالم، كما تقولون، وقد أعطى  
للرجل حقا صريحاً في تطليقها وهدم حياتها الزوجية في أي وقت يريد ؟  
نقول نعم ، أن الطلاق هذا كان يمكن أن يعتبر من الامور الحاطة  
من كرامة المرأة المسلمة اذا كان الاسلام لم يساوها بالرجال فيه .



فهذا الدين لم يمنح الرجل وحده حق الطلاق، ولكنه آسى بين الذكر والانثى فيه، فقرر أن للمرأة أن تشتط في عقد الزواج أن يكون حق الطلاق لها دون الرجل، فتصبح عقدة الزوجية في يدها تحلها في أى وقت تشاء. وقد استفادت كثير من النسوة من هذا الحق، فجعلن عصمتن بأيديهن، وبقين مع أزواجهن على هذه الحالة، أو طلقنهم عند ما رأين أن الصواب في الاتصال عنهم. وكل مأذون شرعى وكل محكمة شرعية تقبل هذا النوع من الزواج بدون قيد ولا شرط. وفوق هذا فإنه أباح للمرأة حق الاشتراط على زوجها في حالة تزوجه عليها أو تطليقها، بأن يدفع لها تعويضاً مالياً أو غير ذلك. فإذا كان المسلمون قد أهملوا الاستفادة من هذه الحقوق الشرعية، ورضوا أن يجعلوا بناتهم تحت سيطرة الرجال فلا يعيب شريعتهم ذلك، ولكن يصممهم هم بالتفريط في حقوق بناتهم. ويخيل لي أنه لن يمضى وقت طويل حتى يتنبه الناس لهذه الحقوق فيستفيدوا منها، وبذلك تصبح الحماية التي يهبها الإسلام للنساء مضراب الامثال في مشارق الارض ومغاربها. هذا من أمر الطلاق أما مسألة تعدد الزوجات فإن الإسلام لم يوجد لها أيضاً، ولكنه جاء فوجد الناس كلهم معددين إلا الأمة المسيحية. وكان العرب في جاهليتهم من أكثر الأمم تعديداً للزوجات، فرأى الإسلام أن يتوسط في الأمر فجعل للتعدد حداً لا يتعداه. وقرر أن من أقدم على هذا الأمر لزمه العدل بين الزوجات، حتى قال الله تعالى: «فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة» وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما مات يوم القيامة وشقه ساقط»



على أن للإسلام من اقراره مبدأ التعدد غرضاً بعيد الغور في الاصلاح الاجتماعي لا يدركه الا نافذو البصر في العلم ، وهو أنه علم أن من الرجال من لا يمكن أن يردعهم عن المضي في شهواتهم رادع ، وأن العقوبات المشددة والنصائح المؤكدة لا تكفي ، في كبح اندفاعاتهم الجسدانية ، فأباح لهم التعدد لا ليجد هؤلاء لهم مخرجاً من الحرج فقط ، ولكن ليحمي المرأة من شرمستطير وقعت في مضايقة المرأة الغربية ، ولقيت فيه من العنت ومرارة العيش ما لقيت .

نعم ، لان أمثال أولئك الرجال في البيئات الغربية ، حيث لا يسمح بتعدد الزوجات ، يتخذون صواحباً يسمونهن ( بالمتريسات ) ، ومهما أساغ المجتمع رؤية هؤلاء ( المتريسات ) والعلم بأمرهن ، فانهن لم يخرجن في اعتباره عن طبقة المتجرات بنفسهن ، والراضيات بعيشة المهون محرومات من جميع الحقوق النسوية .

ولكن الاسلام لم يرض للنساء هذه الدركة الساقطة من الحياة ، ولم يشأ أن يراهن قط عاهرات ، ولا في حكم العاهرات ، محرومات من كل ضروب الحماية والحقوق الشرعية ، فرمى بشرعية امكان تعدد الزوجات الي ان لا تكون المرأة في حالة من احوالها محرومة من حقوق تطالب بها امام القضاء ، والي ان لا تسقط من اوج كرامتها الجنسية الي حضيض النسوة المجردات من حقوقهن الاجتماعية .

نعم ، ان في اوربا وامريكا عشرات الملايين من النسوة يعشن على حالة ( متريسات ) ، أو شبه ( متريسات ) ، وقد يرزقن بأولاد يحرمون هم ايضاً من حقوق الوراثة ، وقد تسببت من هذه الحالة مشاكل



اجتماعية لا تقف عند حد، جعلتها الجمعيات النسوية من ادلتها في وجوب الحاق الابناء الطبيعيين بأبائهم غير الشرعيين، ولا يزلن الى اليوم يجاهدن في هذه السبيل ولم يصلن الى شيء .

وبما أن غلبة الشهوات متأصلة في طبيعة الكثيرين من الرجال، وان اتخاذ ( المتريسات ) لامناس منه في كثير من الاحوال، فقد احتاط الاسلام لهذه الحالة باباحة تعدد الزوجات مع التكريه فيه كما رأيت، لاليشبع الغريزة البهيمية للرجال، ولكن ليحمى المرأة من الوقوع في حالة بؤس تتجرد فيها من جميع الضمانات الاجتماعية، وتبرز للمجتمع في عداد النسوة الساقطات . فهو يريد ان تعامل المرأة في جميع الاحوال باعتبار انها زوجة شرعية ذات حقوق، لا باعتبار انها ساقطة من كل حماية من القانون .

فمسألة التعدد لو نظر اليها من هذه الناحية، تصبح في نظر العارفين بادواء الاجتماع وطبائع الانسان، من النظم العادلة الموضوعة لتدارك مشا كل اجتماعية غاية في التعقد وسوء المنقلب، وهو يشكر على اساغتها على كراهيته لها من باب بعض الشر أهون من بعض .

فأى الحالتين أجدى على المرأة وأحفظ لكرامتها، ان تصبح زوجة ثانية او ثالثة او رابعة لرجل تستطيع ان تطالبه بنفقتها ونفقة اولادها، وترثه اذا مات ويرثه اولادها منه، او تضحى في عداد المبتذلات لاحق لها ضده، ولا ترثه اذا مات ولا يرثه اولادها منه، فتمسى هي وهم في حالة من البؤس يصيرون فيها عالة على الناس، مجردين من الكرامة في نظر العشراء والخلطاء ؟



ان العالم الاجتماعى اذا تأمل فى هذا التشريع يأخذ العجب، وتلم به الحيرة، من صدور هذه الحكم الباهرة من رجل أمى كان يعيش فى القرن السابع للميلاد، فلا يملك نفسه من الاعتراف بأن هذا نور وصل اليه من السماء، لاسيما وأحوال العالم كانت لا تقتضى مثل هذا التجديد الذى لم يحلم بمثله فلاسفة اليونان المقدمون، ولا مشترعو الرومان الاولون، بل ولا الاجتماعيون المعاصرون .

هذا ما عن لنا كتابته فى هذا الباب، وفى الفصل التالى ننظر فى بقية ما أتى به مؤلف كتاب ( مسائل فى الدين ) من الشبه ضد الاسلام ان شاء الله .

### علاج الفقر فى الاسلام

يقول صاحب كتاب ( مسائل فى الدين ) فى شبهته التاسعة، إن محمداً لنشوته فى الحرمان والفقر كان يكره فى الفقراء، فأوصى بالتصدق عليهم، والى ذلك تعزى كثرة المتسولين حيث تدرس تعاليم الاسلام وهذه فى الواقع ليست بشبهة، ولكنها تنطوى على معجزة اقتصادية لخاتم النبئين صلى الله عليه وسلم، لمن يتذوق الامور الاجتماعية، ويفهم مكان العوامل الاقتصادية منها .

فلو كان يعلم مؤلف ذلك الكتاب انه ستخلق فى القرن التاسع عشر مسألة تضطرب لذكرها أعصاب العالم، وتجتمع لها المؤتمرات تتلوها المؤتمرات، وتقوم من أجلها حرب عوان لا يحمد لها أوار بين العمل ورأس المال، وتحترق فى سبيل حلها مخاخ لرجال



ممتازين ، تسمى ( مسألة الفقر ) ويشار اليها في عرف الاجتماعيين بكلمة ( *Paupérisme* ) ، قلنا لو كان يعلم ذلك لا ضرب عن ذكرها ، لانها تثبت لخاتم النبيين معجزة من أكبر المعجزات الاجتماعية .  
 أليس تفكيره فيما كان لا يفكر فيه الناس على عهده، وكثرة تفليته لمسألة لم يشعر الناس بنظرها وان كانت من أكبر عوامل الانحلال الاجتماعي في كل مجتمع ، يعتبر من أعجب الامور ، ويدل على أن دينه جعل ليبقى دين البشرية مابق الانسان ؟

فاصغ الي أحدثك عن تاريخ مسألة الفقر، وما آلت اليه وما عولجت به، مستهديا بمقررات علم الاجتماع فأقول :

في أية أمة قديمة أجال الباحث نظره، وجد طبقتين من الناس لاثالثة لهما ، الطبقة الموسرة والطبقة المعسرة ، ووجد بازاء هذا أمراً جديراً بالملاحظة، وهو أن الطبقة الموسرة تتضخم الي غير حد ، والطبقة المعسرة لا تفتأ تهزل حتي تلتصق بأديم الارض معيبة رازحة ، فيتداعى البناء الاجتماعي لو هن أساسه، وقد لا يدري المترفون من أى النواحي خر عليهم السقف .

كانت مصر في عهدها القديم جنة الله في الارض ، وكانت تنبت من الخيرات ما يكفي أضعاف أهلها عدداً ، ولكن الطبقة الفقيرة فيها كانت لا تجد ماتاً كله . . . لان الطبقة الموسرة كانت لا تترك لهم شيئاً غير حثالة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فلما أصابتها المجاعة على عهد الاسرة الثامنة عشرة باع الفقراء أنفسهم للاغنياء فساموهم الخسف وأذاقوهم عذاب الهون .



وفي مملكة بابل ونيوى كان الامر على ما كان عليه في مصر ،  
لاحظ للفقراء من ثمرات بلادهم ، على انها كانت تسامى بلاد الفراعنة  
نماء وخصوبة، وكانت تجرى مجراها فارس.

أما لدى الاغارقة الاقدمين، فكان الامر لا يعدو ماتقدم ، بل  
تروى عن بعض ممالكهم أمور تقشعر من هولها الجلود . فتمد كانوا  
يسوقون الفقراء بالسياط الى أقدر الاعمال ، ويذبحونهم لاقبل الهفوات  
ذبح الاغنام .

أما في اسبارطا من ممالكهم، فقد كان الموسرون تركوا للمعسرين  
الارض التي لا تصلح للانبات، فذاقوا ألوان الفاقة كلها غير مرحومين .  
وكان الاغنياء في أثينا يتحكمون في الفقراء الى حد انهم كانوا  
يبيعونهم بيع العبدان اذا لم يؤدوا لهم ما كانوا يفرضونه عليهم  
من الاتاوات .

أما في رومية منبع الشرائع والقوانين ، ووطن الفقهاء والاصوليين ،  
فقد كان الموسرون مستولين على العامة، ومتميزين عنهم تميزاً يجعل  
العامة بازائهم كالطائفة المنبوذة لدى الهندين، وما كانوا يرضخون  
لهم بصباية إلا بعد أن ينال منهم الاعياء، فيهجرون المدن ويقاطعون  
الجماعة مرغمين .

قال العلامة المؤرخ « ميشليه » في المملكة الرومانية من  
هذه الناحية :

« كان فيها الفقراء يزدادون كل يوم فقراء، والاعنياء يزدادون غنى ،  
وكانوا يقولون ليهلك الوطنى ولت جوعا اذا لم يستطع أن يذهب



الى ساحات القتال »

فلما زالت الدولة الرومانية وقامت على انقاضها الممالك الاوربية  
ازدادت حالة الفقراء سوءاً، فكانوا في جميع أصقاعها يباعون كالماشية  
مع أراضيهم .

فلما هل القرن التاسع عشر وولدت العلوم الاجتماعية ، وتنبهت  
العقول لعوامل التآليف والتفريق في الامم ، شعر الكافة بفداحة  
داء الفقر ، وأدركوا انه هو الذي ينخر عظم الجماعات ويفسد كيانه العام .  
فارتأى بعضهم أن يحث الاغنياء على التصديق على الفقراء ، فاعترض  
عليهم بأن هذا يفضي الي التواكل والتكاسل ، فيخسر المجتمع جهود  
عماله ونشاطهم .

واستحسن بعضهم أن تفتح لهم أبواب المهاجرة وأن يدعوا اليها ،  
فاعترض عليهم بأن هذا يفضي الي زوح الثمات النشطة الي الخارج  
وفيه خطر شديد .

فاهتدى أخيراً الى تأليف الجمعيات التعاونية فأثمرت خير الثمرات ،  
فان هذه الجمعيات استطاعت أن تدرك حاجات العاملين وجهات ضعفهم ،  
وان ترفع أمورهم للحكومات ، باذلة السعي في استصدار تشريعات مفيدة  
لوجودهم ، ومحسنة لاجورهم ، وان كانت كثيراً ما تثير القلاقل وتمخض  
مجتمعاتها مخضاً غنياً . وهذه المسألة أكبر المسائل الاجتماعية خطراً ،  
وأشدها شغلا لاذهان الناس ، ناهيك انه قد أصبح اليوم في الارض  
نحو من ثلاثين مليوناً من العمال في حالة عطل مطلق ، لا يجدون  
ما يعملون ولا ما يأكلون . وقد اضطرت الحكومات أن تنفق عليهم



من مال الامة، فهل يعد مؤلف كتاب ( مسائل في الدين ) هذه الاعانة صدقة تغرى بالكسل وتكثر المتسولين، حيث تنتشر تعاليم هذه المدنية الساحرة؟

س لهذا السبب كان يهتم خاتم النبیین محمد صلى الله عليه وسلم بأمر الفقر والفقراء، فانه قدر الفقر أحسن تقدير فقال: « كاد القرآن يكون كفرةً » وقال: « اللهم انى أعوذ بك من الفقر ». ألا ترى كيف أن هذا الفقر يهدد اليوم أكبر مدنية أنتجتها الجهود البشرية بالتحطيم، ويتوعددها بالمحق؟ أن من لا يريد أن يرى هذا الامر فهو يريد أن ينكر الشمس وهي فى كبد السماء.

ب فماذا فعل الاسلام حيال هذه المسألة الخطيرة؟ أوجد نظاماً اقتصادياً استوعب فيه جميع الاصول العمرانية المزيلة من خطر الفقر، والمنجية من آثاره، فأجبر الاغنياء على دفع صدقة عن أموالهم، والصدقة فى عرفه هى الزكاة، والزكاة ضريبة اجبارية على كل ذى مال تجبى منه باعتبار انها أموال حكومية لاغراض اجتماعية، فهى غير الصدقة التى تثبط الهمم وتغرى بالكسل وقد جعل الاسلام أمر التصرف فى هذه الاموال للحكومة، فهى التى تعمل بما تمليه عليها الحاجة الوقتية والحالة الاجتماعية. ومثل هذا الاخذ من الاغنياء قد لجأت اليه الامم الغربية قاطبة اليوم باسم الضرائب على رؤوس الاموال وعلى الدخل وعلى الموارىث، والغرض منها كلها تدارك حاجات الفقراء، وقد بزغ الاسلام جميعاً وسبقهم بثلاثة عشر قرناً بتقريره نظام الزكاة. وقد قصد من ذلك احداث رد فعل ازاء تضخم الاغنياء



أما قول ( ميشليه ) أن الاغنياء في كل مجتمع كانوا يزدادون غنى والفقراء فقرا. فهذه الحركة الاندفاعية المستمرة من الاغنياء لابد لها من حركة عكسية مستمرة مثلها، ليحفظ التوازن من تعاكسيهما. فما قرره الاسلام من الزكاة يمنع من تركز المال في أيدي رجال معدودين، وحرمان الكافة منه حرماناً مطلقاً .

ولم يهمل الاسلام ازاء هذا الحل بقية الاصول العمرانية الخفيفة للفاقة، فنذب الي المهاجرة فقال تعالي : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغماً كثيراً وسعة » .

وعنى عناية خاصة بالحث على الاجتماع للتعاون فقال تعالي : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » . فالاسلام كما ترى قد مزج الاصول الخفيفة للفاقة، وجعل من مجموعها نظاماً آلياً محكماً يعمل في المجتمع عمل الاداة المنظمة للحركة الاقتصادية . فمنع بفرض الزكاة تركز المال كله في أيدي معدودة ، وسن بالحث على المهاجرة تصريف العدد الزائد من المجتمع الي البلاد الاخرى تخفيفاً للضغط عليه ، وجعل من حثه على التعاون هيئة تصلح للتوفيق بين العمل ورأس المال .

وقد حث الاسلام بجانب هذا على الصدقة الاختيارية، فحاشي في ذلك جميع الاديان ومذاهب الاخلاق ، فهو لم ينتكر هذه الفضيلة ولكنه أيدها وحض عليها، وأبى أن تكون هذه الصدقة سبباً في تكاسل بعض طبقات المجتمع . والدليل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا هاجر اليه أفراد من جهات بعيدة ولم يجدوا لهم مرتزقاً، والامة



في أول تكونها أمرهم أن يقيموا بالمسجد، فما زالوا يكثرون حتي بلغ عددهم أربع مئة . فكانوا اذا طرأ قتال خرجوا معه ، فاذا عادوا أووا الي المسجد . وكان الناس يتولونهم بالنفقة . فلما تولى عمر الخلافة واتسعت مملكة العرب صرفهم من المسجد قائلاً : لقد احتفظ النبي صلى الله عليه وسلم بكم في عهد لم تكونوا تجدون فيه مرتزقا، ولكن اليوم قد اتسعت في وجوهكم أبوابه، فامضوا شأنكم واعملوا مع العاملين .

وقد أخطأ مؤلف كتاب ( مسائل في الدين ) في دعواه أن محمداً كان عائشاً في أول أمره في الحرمان، ولذلك حث على الصدقة . فانه لما تولى والده كفله جده عبد المطلب سيد قريش الذي كانت داره مثابة للغادين والرائحين . فلما مات جده كفله عمه أبو طالب، وهو من أشهر سادات قريش . ولم يكن النبي نفسه عاطلاً عن العمل ، بل بدأ عمله وهو صغير في الرعاية ، فلما ترعرع واشتد تعاطى التجارة ، وما زال بها حتي بعثه الله رسولا للعالم كافة . ولم ينقل انه كان على فاقة، أو انه كان محروما من خفض العيش .

أليس كل ما تقدم يثبت أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان أكبر بناءة الامم ، وأعظم صاغة الشعوب ، إذ فكر، وهو يقيم صرحه الاجتماعي الضخم، في مسألة الطبقات الاجتماعية، فجاء بنظام اقتصادي هو عينه الذي هديت اليه الامم في القرن العشرين، لتتقي به انحلال وحدتها، وتداعى أركانها ؟

وهنا أسمح لنفسي أن أشكر مؤلف كتاب ( مسائل في الدين )



إذ هاجني بشبهته هذه لبيان معجزة للنبي لم يلاحظها السواد الاعظم من الناس، ولها في العصر الراهن من القيمة ما ليس لغيرها، لاشتغال المفكرين كافة في تدارك أحوال الطبقات الفقيرة، وهذا من أغرب ما اتفق للمتناظرين .

### دفع شبهات عن القرآن الكريم

يقول صاحب كتاب ( مسائل في الدين ) في شبهته الاخيرة عن القرآن الكريم، انه مشحون بأخبار المشاهد الروحانية البعيدة عن العقل ، وانه ينقصه البيان والترتيب ، وهذا من أعظم علل الاملال والارتباك لهذا الكتاب مما جعله غذاء عقيماً لذويه !

ونحن نطابق كلمة شبهة على مثل هذه العبارات تسامحاً، لان التهم فيها غير معينة تعييناً واطحاً، فكل كتاب سماوى أو انساني يمكن رميه بهذه الوصمات بحق أو بباطل ، والذي يتصدى للرد عليها يضطر أن يجلو عنها الغموض الذي يحيط بها أولاً ثم يعنى بمناقشة قائلها: فهل يعنى صاحب كتاب ( مسائل في الدين ) بقوله أن القرآن مشحون بأخبار المشاهد الروحانية البعيدة عن العقل، أنه يكثّر من ذكر الملائكة والجن والوحى والثواب والعقاب الاخرى بين الخ الخ ؟ ان كان يعنى هذا فكل الكتب المعتمدة انها سماوية تنكر كل هذه الامور، ومنها ما توسع فيها الى حد بعيد، إذ أثبتت ان لله جسداً وتحيزاً ، وانه قابل لبعض الانبياء وجها لوجه وتحدث اليهم ، وان منهم من أمسك به ولم يفلقته حتى حباه بلقب جديد ، وقد وصفت هذه الكتب



المخالق بأوصاف المخلوقين ، فأسندت اليه الضحك والبكاء والندم والمحابة والقسوة الخ الخ . على حين أن الاسلام قد قرر انه دين العقل ، وانه لا يذكر شيئاً يصعب فهمه ، ولم يكلف الآخذ به الا بما يعقله ويستطيع التدليل على صحته ، وهذه ميزة ليست لدين غيره . فقد زعم حفظه تلك الاديان ان فيها ما هو فوق العقل ، وانه يجب على الآخذ بها اجمال مواهبه الادراكية في الامور الاعتقادية ، والبون لاحد له بين الفريقتين .

فالأجدر بنا مادامت هذه الشبهة من الغموض بهذه المنزلة أن ندعها حتي يعين صاحبها مراده منها .

أما قوله أن القرآن ينقصه البيان ، فهذا من أغرب ما سمعناه من الشبهات على هذا الكتاب الكريم . فان ساغ لمنكر أن يرميه بكل ما يطوف بخياله من التهم ، فلا يسوغ له أن يرميه بالتجرد من البيان . أما بلغه أن هذا الكتاب قد اعتبره العرب معجزاً في نظمه ومعناه معاً ، وانهم قد قصروا عن الاتيان بمثل سورة منه وقد تحداهم بذلك تحدياً ، فقال تعالى : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » ، وقال تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » ؟ وقد سلم العرب بإيمانهم به بأنه معجز حقاً . وقد ساد هذا الرأي حتي في العهد الذي بلغت فيه البلاغة العربية أوجها الأعلى بدخول



الاساليب الفارسية واليونانية والهندية اليها في القرن الثالث للهجرة ، وقد وضعت مؤلفات تكشف عن أسرار بلاغته من فحول البلاغة أنفسهم ، وكل ما ألفه المؤلفون في علوم البيان والبديع والمعاني اعتمدوا فيه على أمثلة من القرآن ، باعتبار انه ينبوع لا ينضب معينه لجميع ضروب البلاغات اللفظية والمعنوية ، فهل مؤلف كتاب ( مسائل في الدين ) يمزح بقذفنا بهذه الشبهة ، أم هو يقول ما يعتقد فيدلنا بذلك دلالة ناطقة على انه لا يعرف العربية ، وانه لا يحسن النقل عن المستشرقين الذين عرفوها ، وشهدوا للقرآن ببعض ما يستحقه من هذه الناحية ؟

بقي قوله أنه خال من الترتيب ، يريد بذلك انه غير مرتب على فصول وأبواب كسائر الكتب ، فلم توضع أغراضه كل في الفصل أو الباب الخاص به ، بل مزجت مزجا غير مراعى فيه نظام التأليف . قال وهذا سبب الملل الذي يعترى سامعه وقارئه ، وعلة للارتباك في فهمه ، مما جعله غذاء عقيما لذويه . وفاته أن هذا الكتاب لو كان مختلفا لتوخى فيه مؤلفه الترتيب الذي يتطلبه صاحب كتاب ( مسائل في الدين ) . فقد جرت العادة أن يجلس الذي يريد أن يضع كتابا الي ناحية ويفكر في نظامه وأغراضه ، فيجعل لكل طائفة من المواد فصلا ، ولكن القرآن ليس بكتاب وضعي ، ولكنه وحى نزل عند حدوث الحوادث وطروء الطوارئ ، فمنه آيات نزلت للدعوة الي الدين ، وأخرى للرد على المنكرين ، وغيرها للإجابة على السائلين ، وسواها للفصل بين المتنازعين ، وطائفة للبحث على الجهاد ، ومثلها للحض على مكارم الاخلاق الخ مما لا يكاد



يخصي ، وكلها نزلت نجوما ومرتبة على الحوادث الوقتية. فلقد كان الوحي لدى الطائفة التي أخذت بالاسلام لاول عهدها بمنزلة العقل المدبر لها، تستهدي به في المشكلات ، وتسترشده في تدليل العقبات ، وتتحرك تحت أملائه نحو ماجل وماحقر من الاغراض ، إلا ما ترك لارادتهم في بعض الشؤون، تمرينا لهم على الاكتفاء بعقولهم متى استعدوا له بعد حين . فهو مجموع اشراقات من الوحي اقتضتها الحوادث وقت حدوثها ، وهذه الحوادث تتكرر في كل جيل ، وتتردد في كل مجتمع ، وكثير من آيات القرآن نزلت في اصلاح القلوب ، وتهذيب النفوس ، وتقويم الاخلاق ، وبعث الهمم الي جلائل الاعمال ، وتثبيت العاملين في جهادهم ، ونفث روح المثابرة في كيانهم ، فهذا المجموع من اشراقات الوحي متى قرىء أو سمع استولي على جميع ما أخذ النفوس ، وتساط على كل مسارب العقول ، وتحكم على جمهرة مواطن الاقتناع من الصدور ، فلا يجد تاليه أو سامعه محيصا من الاذعان اليه ، والاستخذاء له، لانه يحرك جميع الاوتار في الروح الانساني دفعة واحدة ، فيؤخذ سامعه به أخذاً ، كأنه قد غمرته موجة من السحر فلم تدع له متنفسا في غيره من الامور ، ولم تترك له متملصا الي سواه من الشؤون . وقد شعر بتأثير القرآن هذا كل من قرأه ومن سمعه سواء أ كان من أهل هذا الدين أم لم يكن ، فهل هذا التأثير السحري هو الذي يعبر عنه صاحب كتاب ( مسائل في الدين ) بأنه موجب للاملال ، وباعث الي الكلال ! ان كان هو هذا فيكون قد سمي الشيء بغير اسمه ، وأطلق عليه ما يدل على عكسه .

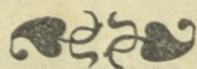


أمانه غذاء عقيم للآخذين به، والمعولين عليه ، فهذا من أعجب ضروب المنطق . فان المعلوم بالضرورة أن هذا الكتاب نزل في قبائل متفرقة الاهواء ، مشتتة الهموم ، موزعة الجهود ، متنافرة المطالب ، لا هم لها إلا التناحر والتناهب ، ولا عهد لها بنظام اجتماعي ، ولا بغرض سياسي ، ولا بوحدة اقتصادية ، ولا بنزعة عمرانية ، ولا بعاطفة عالمية ، فجمع متفرقها ، ووجد وجهتها وغايتها ، ونظم شؤونها ، ثم رمى بها كتلة مندحجة الاجزاء ، حاصلة على جميع مقومات الحياة وعوامل التطور، في بهرة المجتمعات البشرية، حيث مزدحم المطاعم ، وملتظم المصالح ، ومعتكك الاهواء ، وحيث التناحر المعاشي يسوق الجماعات للتأخذ بالأيدي والمناكب، وللتراحم بالحديد والنار ، فلم تلبث أكثر من ثمانين سنة حتى أوجدت لنفسها ملكاً لا تغرب عنه الشمس ، لم يتسن لا كبر الامم الفاتحة مثله ولا الرومانيين ، ولا اتفق لاوسع الامم المعاصرة استعماراً شبيهه الي اليوم ، فاتمته اليها خلافة الارض في العلم والفلسفة والفنون والسياسة ، وكانت سبباً في انهاض العالم من كبوته ، واقالة المدنية العالمية من عثرتها ، شهد لها بذلك الاقربون والابعدون ، واعترف لها به الموالون والمعادون ، فهل هذا أثر الغذاء العقيم الذي أتى به القرآن لذويه، كما يقول صاحب كتاب (مسائل في الدين) ؟ وهل هو جاد أو هازل فيما يقول ؟

وبعد فاننا وقد اتهمنا من رد هذه الشبهات لانزال نرانا في حاجة الي الكتابة ، لانه يخيل لنا أن قوماً يتوهمون أن الاسلام دين يمكن هدمه، وهذا جهل عظيم بماهيته، لا يتفق وتقدم المعارف في هذا



العصر ، لذلك نرى أن نأتي بفصول جديدة نبين بها أنه خاتمة  
الاديان وانه حاصل على جميع ضروب المناعة العالمية ، وعلى كل عوامل  
البقاء والخلود ، وأن العالم كله سيتأدى اليه بعد أن تضعف عوامل  
التعصبات الدينية المذمومة ، وموعدنا بفتحة هذا البحث الفصل التالي  
إن شاء الله .



## ( تصحيح خطأ )

ص	٢١	سطر	٢١	اقرأ واسماعيل واسحق
»	٣٢	»	١٩	اقرأ يكفرون بالله ورسله ويريدون
»	٣٥	»	٦	أن يعرفوا بين الله ورسله ويقولون الخ اقرأ لتؤمنن بدل لتأمن
»	٩٠	»	٢٠	اقرأ ( هو الذي ) بدل ( وهو الذي )
»	١١٥	»	٢٠	اقرأ وأعرض عن المشركين بدل الجاهلين
»	١١٦	»	٢١	اقرأ أنزل عليك بدل اليك
»	١٢٥	»	٣	احذف ولم يظاهروا على اخراجكم
»	١٢٥	»	٩	اقرأ ( ادع ) بدل ( وادع )
»	١٣٢	»	١	اقرأ ( أنزل عليك ) بدل ( اليك )



# فهرست

	صحيفة
الاسلام دين عام خالد	٥
ماهو الدين على اطلاقه	٦
بحث في الوحي	١١
شأن الاسلام مع العلماء المنتهين	٢٣
شأنه مع الاوساط	٢٩
الاسلام يعلن سلطان العقل والعلم	٣٥
الاسلام لا يضع للرقى حدا ولا يوصد على العقول مجالا	٤٢
الاسلام لا يحرم ما تشعر به النفس من المباحات	٤٧
الاسلام مرن يسع كل ما يجد من الآراء العلمية والمذاهب الفلسفية	٥٤
أسلوب الاسلام في بناء الاخلاق ومذهبه في اعطاء العقل حريته في التطور	٦٠
شريعة الاسلام هي القرآن وهي أصول العدل المطلق	٦٧
نظرة على أصول الشريعة الاسلامية	٧٥
الحدود المقررة على بعض الجرائم في القرآن	٨٢
حكم الآيات المتشابهة في القرآن	٨٨
حظ العامة من الاسلام	٩٣
أثر الاسلام في العالم كافة	٩٤
حظ الكون من الاسلام	١١٠
خط الدفاع الاخير	١١٥
خاتمة	١٢٦
دفع شبهات عن الاسلام	١٣٢

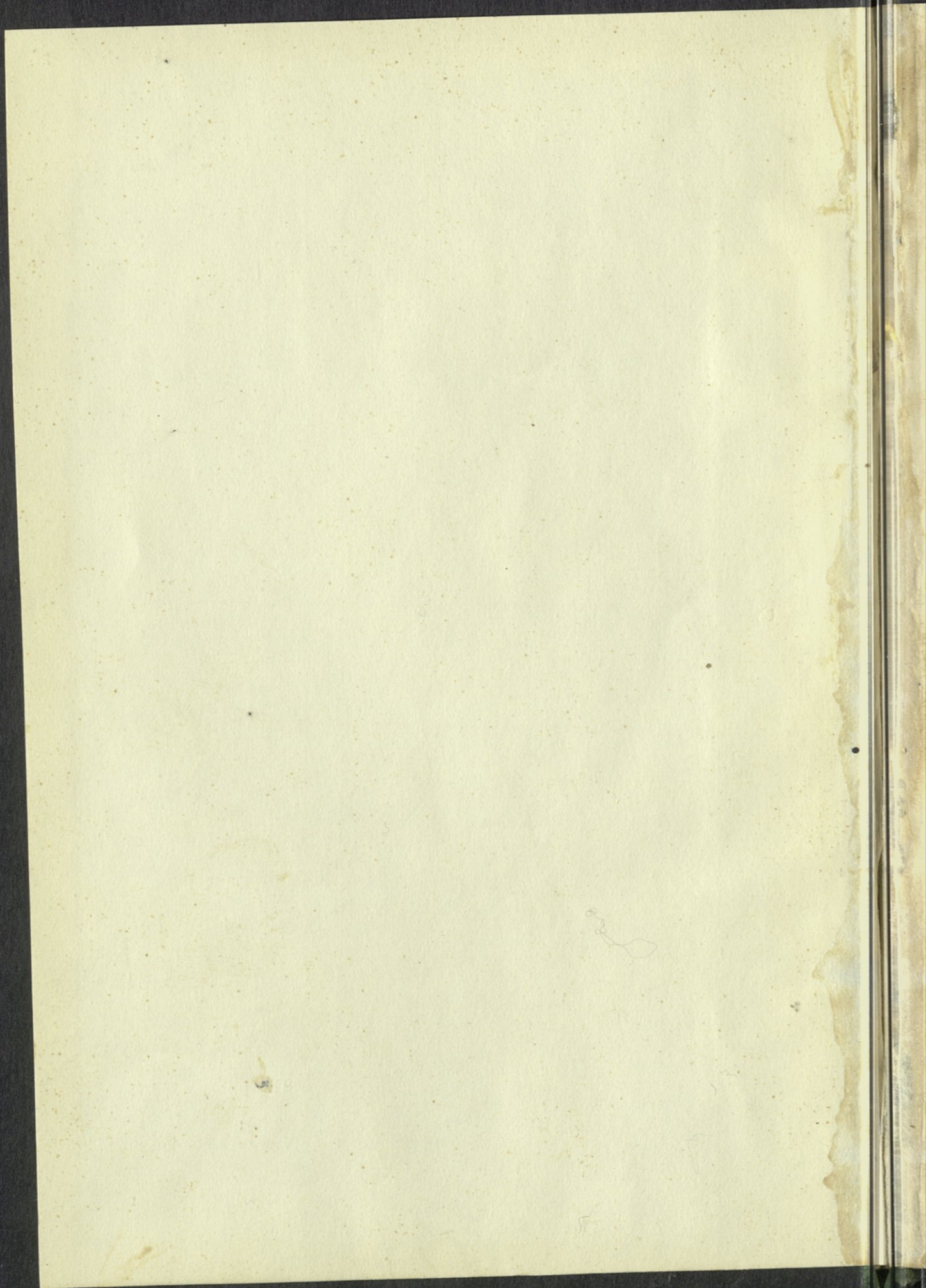


دفع شبهات عن الاسلام	١٣٣
هل كان محمد مريضا عصبي المزاج ؟	١٣٤
هل كان محمد يتصنع الوحي ؟	٦٣٧
هل كان محمد قاسيا وغادرا ؟	١٤١
هل الاسلام دين حربي محض ؟	١٤٦
ألم يثبت الاسلام انه دين ترق ؟	١٥١
المرأة والرق في الاسلام	١٥٩
الطلاق وحقوق النساء في الاسلام	١٦٥
الطلاق وتعدد الزوجات في الاسلام	١٧٢
علاج الفقر في الاسلام	١٧٨
دفع شبهات عن القرآن الكريم	١٨٥

## المصحف المفسر

كان التفسير الي عهدنا وقتنا على الذين تتسع اوقاتهم لقراءة المطولات، ومشحوناتها بالمصطلحات الفنية التي تعلو عن متناول الاوساط، فرأينا أن نؤلف تفسيرا سهلا على التالين معرفة مدلولات الفاظ القرآن، ومعانيه، واسباب نزوله، اثناء التلاوة، بحيث لا يقطعها على التالي، وطبنا طبعا انيقا مأخوذا من خط الحافظ عثمان على ورق جيد وثمنه خمسون قرشا. ويمكن أخذه ملازم بدفع كل شهر عشرة قروش فيرسل له بقيمتها







100  
100



297:W14iA:c.1

وجدى، محمد فريد  
الاسلام دين عام خالد

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01005545

American University of Beirut



297  
W14iA

General Library



297  
W14iA  
c.1